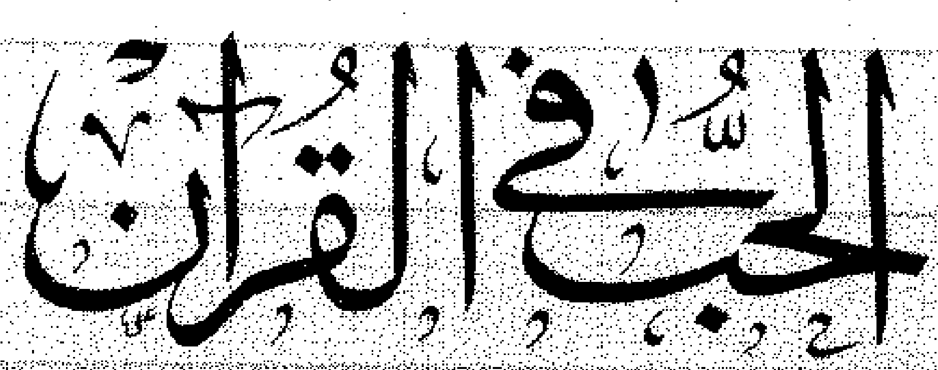
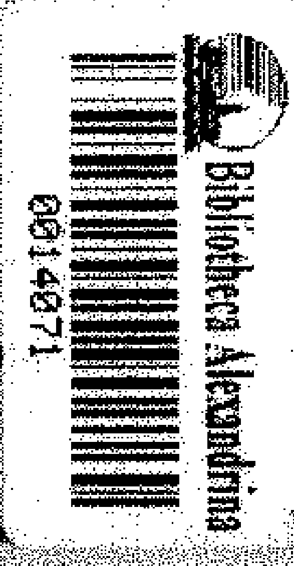
المكتبة القرآنية





دار ومكتبة الهلال

الحب في القرآن

المكتبة القرآنية

٩

الحب في القرآن

تأليف

الدكتور محمود بن الشريف

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٨٣

الادارة العامة - بيروت شارع المقداد - بناية فرحات وحجازي
ص . ب = ٥٠٠٣ / ١٥

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

﴿والذين آمنوا أشد حبّاً لله﴾

قرآن كريم

«اللهم : إني أسألك حبك
وحبَّ من يحبك
وكلَّ عمل يقربني إلى حبّك»

من مناجاة رسول الله ﷺ لمولاه العلي العظيم

بين يدي الكتاب

قد يقطّب إنسان ما بين عينيه حينما يسمع عن الحب في القرآن.. وقد يشيح بوجهه ، وينأى بجانبه، ويحوقل ويستعيذ من الموضوع وصاحبه!!

وهؤلاء قليل ما هم، بل هم من الندرة بمكان.

لأن الذي واتاه الله حظّاً من المعرفة والعلم، ونصيباً من الفهم والتذوّق لنصوص الإسلام من آيات قرآنية وأحاديث محمدية تتضح أمامه الرؤية ، ويعلم ـ في يقين ـ أن الإسلام دين الحب وأن المؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحسَّ حرارة الحب.

وعن ذلك يقول رسول المحبة والسلام رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام «ثلاث من كنّ

فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما. وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

[رواه الشيخان: البخاري ومسلم]

ودينننا الإسلامي أمرنا بالحب.. ودعانا إليه.. وأغرانا به.. وحضنا عليه، يقول رسول الإسلام عليه أذكى صلاة وسلام «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبّي».

[رواه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما]

وبهذا يدعو الإسلام إلى المحبة: محبة الله، ومحبة رسول الله، ومحبة الدين والعقيدة ومحبة الخلق.. كما جعل الله سبحانه المحبة بين الزوجين من آياته سبحانه ومن دلائل قدرته يقول تباركت أسماؤه: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾[1].

فالحب سمة من سمات الحياة الروحية في عقيدة

---

(1) من سورة الروم آية ٢١.

المؤمن، وعاطفة لها وزنها في الجو الإسلامي - والمحيط الديني والمجتمع العقديّ.

وما فرح المسلمون بشيء بعد فرحهم بكلمة التوحيد كما فرحوا بكلمة الحب.. جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: وماذا أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، إلا أنّي أحب الله ورسوله. فقال عليه الصلاة والسلام: «المرء مع من أحب».

قال أنس بن مالك - وهو راوي هذا الحديث الشريف: ما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام كفرحهم بذلك.

فرح المسلمون بأمر الحب، وبالأمر بالحب، وشغلهم ما فرحوا به.. شغلهم الحب ولا غرو؟ فقد سمعوا رسول الله ﷺ عندما يناجي ربه يدعوه ويسأله الحب، ويتوجه إليه متوسلا قائلا: «اللهم إني أسألك حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك»[٢].

---

(٢) رواه الترمذي.

والإيمان في الإسلام قائم على المحبة، ومؤسس على المودة. قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»[٣].

فجعل دخول الجنة متوقفاً على الإيمان، وجعل الإيمان متوقفاً على المحبة، فالمحبة شرط في الإيمان وركن في العقيدة، وأساس في الدين.

والمحبة كذلك شرط في استكمال الإيمان وتمامه: «من أحب وأبغض لله فقد استكمل الإيمان»[٤] فالإيمان: أساسه الحب، وكماله بالحب، وأوثق عراه الحب، قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذرّ: يا أبا ذر، أيّ عُرى الإيمان أوثق؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال عليه السلام: «الموالاة في الله، والحب في الله»[٥].

وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال «من أوثق

---

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود عن أبي أمامة.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس.

عُـرى الإيمـان أن تحب في الله وتبغض في الله». هـذا هو الإيمان: قاعدته وركيزته حب، وسنامه وذروته حب وبناؤه حب، وتمامه وكماله وجلاله بالحب، حب الله.. وحب رسول الله الذي يقول «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب الناس إليه مِن والده وولده ومن نفسه التي بين جنبيه ومن الناس أجمعين»[٦].

وقال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، أحبُّ إليّ من كـل شيء إلا من نفسي، فقـال عليه الصلاة والسلام: لا يـا عمر حتى أكـون أحبَّ إليك من نفسك، فقال عمر: والله يـا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من كـل شيء حتى من نفسي، فقال عليه الصلاة والسلام: الآن يا عمر»[٧].

وحبّ الخير للغير من كمـال الإيمان، قال رسول الإنسانيـة عليه أفضـل صلاة وأتم سـلام «لن يؤمن أحـدكم حتى يحب لأخيه مـا يحب لنفسه» وقـال« من

---

(٦) رواه مسلم وأبو هريرة عن ابن عباس.

(٧) أي: الآن كمل إيمانك. وهذا الحديث رواه الشيخان.

سرّه أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله »[٨].

ومن محبة المشرع الحكيم سبحانه تنبع محبة شرعه وشريعته، ومحبة من نزلت عليه شريعته ومحبة كلامه سبحانه، ومحبة من نزل عليه كلامه.

﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[٩]. أجل، يحببكم الله.

فالله سبحانه وتعالى يحبّ.. يحب من أحب دينه، وكلامه ورسوله، واتبع شريعته..

يحب من أقبل عليه، وأناب إليه، وأخلص له، وأطاع أمره وطرق بابه ولاذ إلى رحابه..

يحب الذين يتسامون في حبّهم إلى الذروة بالتضحية والاستشهاد والجهاد في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته ونصرة دينه ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾[١٠].

---

(٨) رواه الحاكم عن أبي هريرة.

(٩) آية ٣١ من سورة آل عمران.

(١٠) آية ٤ من صورة الصف.

وقد صرّح القرآن الكريم في عديد من آياته بهذا الحب، فالمولى جلّت قدرته يحب التوّابين ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين ويحب الصابرين والمتقين، وهو سبحانه يُلقي محبته على من يحبه، يقول تعالى لكليمه موسى عليه السلام: ﴿**وألقيت عليك محبةً منّي**﴾.

والمؤمنون يحبون.. ومحبتهم الأقوى لله مصداقا لقول الله ﴿**والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله**﴾[11] إنهم يحبون ويتقربون إلى مولاهم محبوبهم.

والحب تقرّب.. وعطاء. تقرب من المحب، وعطاء من المحبوب، عن هذا يقول الحديث القدسي «ما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ اليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن استنصرني لأنصرنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله

---

(١١) آية ١٦٥ من صورة البقرة.

كترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بد له منه».

والحب في الإسلام منهج له حدود.. وطريق.. ومعالم.. وقيود، ومخطط تربوي إلهي سما بالعواطف، وهذّب الأخلاق وشذّب الغرائز، وقدّم لكل نفس ما يعصمها من الجنوح، وما يمنعها من الزلل والانحراف، وما يأخذ بيدها حتى تصير نفسا وضاءة مشرقة محبّةً محبوبة.. إن عالمنا اليوم الذي أوغل في المادية، وانحدر إلى مهاوي القلق والأثرة والأنانية.. إن قلبه المكدود الذي يفيض بالحقد والضغن وألوان الكراهية.. إنه في حاجة إلى جرعات محبة، ورشفات مودة تأسو الجراح وتغسل السخائم وتذيب الإحن وتزيل المحن، وتبدّد الأثرة وتبيد الكره والأنانية.

ولعل الإنسانية اليوم في صراعها المحموم وتكالبها المادي وجراحها الدامية.. لعل لها في المحبة الإسلامية ما يأخذ بيدها إلى آفاق من الأمن والأمان والإيمان، وأجواء من الإخاء والنقاء والوفاء.

وبذا تعود للإنسانية حياتها الروحية التي فقدتها وافتقدتها من آماد طوال. والمدنية الحديثة بضجيجها وعجيجها

وماديتها الشرسة وأوارها الملتهب وأنانيتها التي أورثت أمراضاً نفسية وجسدية عزّ علاجها وندر تطبيبها والطب الحديث بمبضعه ومعامله وأنابيبه قد تحيّر أمام هذه الأدواء والأوصاب ولم تستطع عقاقيره أن تصل إلى الأعماق لتزيل ما ترسب من آلام صبغت الحياة بلون قاتم ولونت النفس بلون أسود فاحم.

إن الحب بكل ما يحمله من معان، وبكل ما يشيعه من أمان واطمئنان، وبكل ما يشعه من رضا ومودة وسلام هو علاج للقلق المدني.. وعلاج لإنسان المدنية.. إنسان العصر الحديث الذي فهم الحب على أنه حرية بلا حدود وانطلاق بلا قيود.. وفوضى بهيمية وإشباع غرائز حيوانية.. فانحدر وجرفه التيار إلى مهاوي من القلق والأنانية والاكتئاب والاضطراب..

يرنو إلى الخلاص.. ولا خلاص له إلا في الحب.. حب الحق.. حب النور.. حب السلام، والله هو الحق، وهو النور، وهو السلام..

إن كتاب الله قد تحدث عن الحب وأشار إليه وأشاد به.

وفي الصفحات التالية حديث القرآن عن الحب والود والمحبة والأحباب.

والله الموفق وهو المعين..

الدكتور
محمود بن الشريف

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾

[سورة مريم آية ٩٦]

حُبّ الحب

الله هو النور هو الحق والعدل والخير والسلام

فمن أحب النور والحق والعدل والخير والسلام

فقد أحب الله لأن الله هو الحب[1].

---

(١) أسماء الله تعالى توقيفية لا تتعدى الحديث الذي أحصى أسماءه الحسنى الذي قال فيه رسول الله ﷺ إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها وعدّها دخل الجنة، ولكن الإمام النووي قال إن ذلك الحديث ليس فيه حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد، وليس معناه أنه ليس له سبحانه اسم غير هذه التسعة والتسعين بل له أسماء غيرها. يؤيد ذلك ما ورد من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ دعا فقال: اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك.. إلخ. وقال الإمام الخطابي: في الحديث الأول إثبات هذه الأسماء المخصوصة بهذا العدد وليس فيه منع ما عداها من الزيادة وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها.

والمسلمون مأمورون بحب الله «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه».

وتوعدّ سبحانه بالوعيد من شغلته محبة غير الله عن محبة الله ورسوله **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾**[٢].

وأنت أيها المؤمن ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو لا يرضى أن تكون لغيره عبداً فالعبودية لا تكون إلا لله، إذ هو الإله المعبود، والعبادة له. والحب له.

ومن أحب الجمال كان حبه لله لأن الله جميل يحب الجمال..

ومن أحب الجلال فقد أحب الله فإنه ذو الجلال والإكرام.

---

(٢) من سورة التوبة.

والحب عبادة والعبادة تقوم على الخوف وعلى الرجاء . . وعلى المحبة .

يقول ذو النون : «إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله ، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله ، فإذا سكنت درجة الهيبة دامت طاعته لربه ، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء فإذا سكنت درجة الرجاء تولد من الرجاء المحبة فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه سكن بعدها درجة الشوق فاذا اشتاق أدّاه الشوق الى الأنس بالله ، فإذا أنس بالله اطمأن الى الله . فإذا اطمأن إلى الله كان ليله في نعيم ونهاره وسره وعلانيته في نعيم » .

قال ابن القيم في «مدارج السالكين» جـ ١ ص ٩٩ :

« أصل العبادة محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه» .

والإمام ابن تيمية في رسالته العبودية يقرر أن المحبة جزء لا يتجزأ من حقيقة العبودية مستدلاً على ذلك باللغة

وبالشرع قال: «ولفظ العبودية يتضمن كمال الذلّ وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيَّم إذا كان متعبداً للمحبوب، والتتيم: التعبد، وتيَّم الله: أي: عبد الله».

ثم يقول: إنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك. وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة.. وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله.

وكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع وصفين: أن يكون لله وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله».

ثم يقـول الإمـام ابن تيمية في مـوضـع آخـر من كتـابه العبـودية مقررا أن العبـادة في الشرع خضـوع وحب يقـول: «إن العبـادة المـأمـور بهـا تتضمن معنى الـذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعـالى بغـاية المحبة له، فإن آخر مـراتب الحب هـو «التتيم»، وأولـه العلاقـة، لتعلق القلب بالمحبـوب، ثم الصبابـة لإنصـاب القلب إليـه، ثم الغـرام، وهـو الحب المـلازم للقلب، ثم العشق، وآخرهـا: التتيُّم، يقـال: تيم الله، أي: عبد الله، فالمتيم: المعبَّد لمحبوبه».

ثم يقـول: «ومن خضع لإنسـان مع بغضه لـه لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عـابدا لـه، يجب أن يكون الله أحب إلى العبـد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعـظم من كـل شيء، بـل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله».

ونخلص بعـد أن أوردنا هـذه النصوص والأقـوال نخلص إلى أن معنى حب الله هو أن يقبل المرء على الله ويسلم وجهه وأمره ومقاليده وكيانه كله لله، وأن يتـوكل عليه ولا يسأل لا إيـاه ولا يعتمد إلا عليه وأن يؤثـر طاعتـه على النفس وعـلى المال وعلى الـولـد

والجـاه وأن يكون هـدفه الله وغـايته الله كـما قـال الله.
﴿قل الله ثم ذرهم في خـوضهـم يلعبون﴾.

حب الله تحلية وتخلية يوصلان إلى التجلية.. تحلية للمؤمن بالطاعة والقيام بتكاليف الله على خير وجه وتخلية بها يتجرد العابد للعبادة بالتخلي عن كل ما يشينه كمؤمن وعن كل ما يشوب العلاقة بينه وبين ربه وبالتخلية والتحلية تكون التجلية.. والظهور.. والرعاية والعناية. والعطاء.

والطاعة في الوقت نفسه دليل وعلامة وأمارة على حب الله. فالمحب يطيع من أحب وينفذ أمره في رضا وسعادة قال ابن المبارك:

تعصى الإلَه وأنت تُظهر حبَّه
هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

وهكذا طريق المحبة.. أوله أمر إلهي.. ونهايته طاعة إنسانية.

وقد تضل أو تزل بعض الأفهام في إدراك معنى الحب لله..!!

وقد يقولون إن الله - عزّ وجل - لا يدرك بالحواس ولا يُتمثل في الخيال فكيف يُحب؟!

وغاب عن هؤلاء الذين بنوا أحكامهم على النواحي المادية فحسب غاب عنهم إدراك الأمور المعنوية والنواحي الروحية الوجدانية؛ فالشرف والإنسانية والكرم والوطنية والأريحية..

كل هذه أمور معنوية لا تجسيد ولا تجسيم لها في الخارج.. في دنيا الواقع ولكنها مع ذلك تُدرك وتُحب..

قال الإمام الغزالي في كتابه الإحياء عند حديثه عن تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى قال: إن البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، وأن القلب أشد إدراكا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار.

فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه.

وقال: إن الإنسان عبد الإحسان، وقد جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها والله سبحانه هو

المحسن المنعم المتفضل ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾، ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

ولعل رابعة العدوية: كما يقول الغزالي أرادت بحب الهوى عندما قالت:

أحبك حبين حب الهوى
وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

لعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما.

ثم ينعى الإمام الغزالي على هؤلاء الذين أنكروا حب الله تحقيقا وجعلوه مجازا عندما قال: إن الجميل

محبـوب والجميل المطلق هو الـواحـد الـذي لا نـدَّ لـه الفـرد الذي لا ضـدّ له، الصمـد الذي لا منـازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعـل ما يشـاء، ويحكم مـا يريـد، لا رادّ لحكمه، ولا معقب لقضـائه، العـالم الـذي لا يعـزب عـن علمـه مـثقـال ذرة في السمـوات والأرض، القاهـر الذي لا يخـرج عن قبضة قـدرته أعنـاق الجبابـرة ولا ينفلت من سطوتـه وبطشـه رقـاب القيـاصـرة، الأزلي الـذي لا أول لـوجـوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الـذي لا يحـوم إمكان العـدم حول حضـرتـه، القيـوم الـذي يقـوم بنفسه ويقـوم كل مـوجـود بـه، جبـار السمـوات والأرض، خـالق الجمـاد والحيـوان والنبـات، المنفـرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكـوت، ذو الفضل والجـلال، والبهاء والجمـال، والقـدرة والكمـال الـذي تتحـير في معرفـة جـلالـه العقـول، وتخـرس في وصفـه الألسنة، الذي كمال معرفة العارفين والاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقـرار بالقصـور عن وصفه، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم وعليه أجمعـين: «لا أحصي ثناء عليـك أنت كـما أثنيت عـلى نفسـك» وقال سيـد الصديقـين رضي الله تعـالى عنـه:

«العجـز عن درك الإدراك إدراك. سبحان من لم يجعـل للخلق طـريقا إلى معـرفته إلا بـالعجـز عن معـرفتـه» .
فليت شعـري من ينكـر إمكـان حب الله تعـالى تحقيقـا ويجعله مجازا؟!

الحبيب المحبوب

هو حبيب الله ومحبوبه . .

هو أول المسلمين، وأمير الأنبياء، وأفضل الرسل، وخاتم المرسلين . .

هو الذي جاهد وجالد وكافح ونافح حتى مكّن للعقيدة السليمة النقية أن تستقر في أرض الإيمان ونشر دين الله في دنيا الناس، وأخذ بيد الخلق إلى الخالق . .

هو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، «أدبني ربّي فأحسن تأديبي» وجمّله وكمّله **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾** .

وعلمه **﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾** .

وبعد أن رباه اجتباه واصطفاه وبعثه للناس رحمة

مهداة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وكان مبعثه نعمة ومنّة ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

هو للمؤمنين شفيع، وعلى المؤمنين حريص، وبالمؤمنين رءوف رحيم.

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾.

على يديه كمل الدين. وبه ختمت الرسالات.

هو سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الإنسانية والسلام والإسلام محمد بن عبدالله عليه أفضل صلاة وسلام اختصه الله بالشفاعة، وأعطاه الكوثر، وصلى الله عليه هو وملائكته ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي. يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ صلى الله عليك يا سيدي يا حبيب الله. يا رسول الله يابن عبد الله ورسول الله هو الداعية إلى الله.. الموصل لله في طريق الله.. هو المبلغ عن الله. والمرشد إليه، والمبيّن لكتابه والمظهر لشريعته.

ومتابعة الرسول ﷺ من حبّ الله فلا يكون محبًّا لله إلا من اتبع سنة رسول الله؛ لأن الرسول عليه السلام لا يأمر إلا بما يحب الله ولا يخبر إلا بما يحب الله .التصديق به، فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ فيصدقه فيما أخبر ويتأسّى به فيما فعل وبهذا الاتباع يصل المؤمن إلى كمال الايمان وتمامه ويصل إلى محبة رسول الله، وهل محبة الرسول إلا من محبة الله وطاعة الرسول من طاعة الله **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**.

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الشريفة: إن هذه الآية الكريمة حاكمة على من ادعى محبة اللهوليس هوعلى الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ» ولهذا قال الله: **﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تُحبَّ.

وحبّ سنّة رسول الله ﷺ من حب رسول الله ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام: «من أحب سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة».

وسنة رسول الله ﷺ لها مكانتها ومنزلتها، فرتبتها تلي رتبة القرآن، فهي في المنزلة الثانية بعد كتاب الله عز وجل توضح القرآن وتفسره وتبين أسراره وأحكامه، وكثير من آيات القرآن جاءت مجملة، أو عامة، أو مطلقة، فجاءت أقوال رسول الله ﷺ وأعماله كاشفة للمراد الإلهي وموضحة له عندما فصّلت المجمل، أو قيدت المطلق، أو خصصت العام[1]: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم﴾.

---

(١) فالصلاة - مثلاً - أمر المولى سبحانه في القرآن بإقامتها في أكثر من آية، لكنه سبحانه لم يبين تفاصيلها، ولا كيفيتها، ولا أوقاتها، وإنما أمر بها مجملة، فجاءت سنة النبي محمد - عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات - فأبانت بطريقة عملية وقولية كيفية الصلوات وتفاصيلها وكل ما يتصل بها. وكذلك الأمر في الزكاة أمر بها الشارع الحكيم أمراً إجمالياً فصلته السنة النبوية ولما كانت هنالك أوامر قرآنية مجملة، كقطع يد السارق وجلد الزاني وكانت هنالك نواهٍ قرآنية كقوله تعالى ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

وهي الينبوع الثاني من ينابيع الشريعة الإسلامية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد كتاب الله عز وجلّ. ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ والحكمة هنا: السنّة.

ولقد أمرنا المولى سبحانه باتباعها ونهانا عن مخالفتها ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ليس لنا إلا التسليم المطلق بها والإذعان لأحكامها. ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾.

الشيطان فاجتنبوه﴾ ورد هذا النهي مجملاً أيضاً، فما المراد بالخمر؟ واي المعادير يحرم؟ وما هو الحد الذي يقام على الشارب، كل هذا فصلته سنة المصطفى ﷺ

كذلك جاء القرآن بنهي عام ﴿حُرّمت عليكم الميتة والدم﴾ هذا النهي العام خصصته السنة وأخرجت من ذلك النهي واستثنت منه: السمك والجراد والكبد والطحال. قال عليه الصلاة والسلام (أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال).

وزيادة على ذلك فقد جاءت السنة بتعاليم لم يتعرض لها كتاب الله تعالى، كتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال، وتحريم أكل ذي ناب من السباع. وكل ذي مخلب من الطير.

وجعل التسليم بها دلالة وعلامة على الإيمان الحق الصادق

﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ .

وهي حجة في التشريع لأنها وحي يوحى **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾** .

من أجل ذلك كانت أقواله وأعماله ﷺ ـ بوصفه رسولا ـ داخلة في نطاق التشريع وما دامت أحكامه صادرة عن طريق الله : **﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾** وما دام هو مهدي إلى صراط الله. وهو يهدي إلى صراط الله ، فعلى الناس الائتمار بأمره والابتعاد عن نهيه **﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** .

مقامات الحب

كل من له قلب يحس الحب.. يحب.. والمحبة عاطفة مشتركة بين ذوي القلوب الحية النابضة فهم مشتركون في أصل المحبة، ولكنهم مختلفون متفاوتون في مراتبها ودرجاتها.. فللمحبة درجات ومقامات.. وعلى قدر المعرفة تكون المحبة.. فمن عرف الله أحب الله.. وبقدر درجته في المعرفة تكون درجته في المحبة، ولهذا كان رسول الله ﷺ أشد الناس حبًّا لله، لأنه كان أعرفهم بالله قال عليه السلام: «إن أعرفكم بالله أنا».

والمحبة ثمرة المعرفة يقول الحسن البصري «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يُتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه».

وعن العارف المحب.. عن هؤلاء الذين

علموا . . وعرفوا . . فهاموا وأحبوا وأخلصوا الحب لمولاهم يقول عنهم ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين) :

إنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وعمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته فسرت المحبة في أجزائهم، فلم يبق فيهم عرق ينبض، ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، قد أنساهم حبُه ذكر غيره،وأوحشهم أنسهم به عمن سواه.

قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه، ورجائه، والرغبة إليه والرهبة منه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والسكون والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره . . فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى ربه ومولاه، واجتمع همه عليه متذكرا صفاته العُلا وأسماءه الحسنى، مشاهدا له في أسمائه وصفاته، قد تجلت على قلبه أنوارها فانطبع قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآوى إليه، وأسجده بين يديه خاضعا خاشعاً ذليلا منكسراً.

فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة لا رفع رأسه منها إلى يوم اللقاء . .

وشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع في سفره إليه البيداء . . بيداء الأكوان وخرق حجب الطبيعة .

ولم يقف عند رسم ، ولا سكن عند عَلَم ، حتى دخل على ربه في داره فشاهد عزّ سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله ، فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدا لقلبه أنسته ذكره غيره ، وشغلته عن حب سواه ، وحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت عرش الرحمن .

ويقول الإمام الغزالي في كتابه الإحياء : إن كل من لا يعرف الله في الدنيا لا يراه في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا لا يجد لذة النظر في الآخرة . . ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه إن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادة هي المعرفة التي عبّر عنها الشرع بالإيمان .

وأعلى درجات المحبة . . هي درجة خواص

الخواص.. ومرتبة العابدين المتجردين هي بلغة الصوفية: «الفناء» في المحبوب.

ولفظة الفناء في ظاهرها ومدلولها الحرفي الظاهري تدل على الفناء المادي، فناء الجزء في الكل، وامتزاج الفاني بالباقي.

وهذا المدلول الحرفي في العرف الإسلامي محال.. فالمولى سبحانه نور لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو منزّه عن التحيز والحدود وعن الجهة وعن النهاية والمقدار..

فالمراد بالفناء في عرف الإسلام هو الفناء المعنوي، فناء شهود لا فناء حلول، هو الفناء الإيماني المتسامى إلى الذروة في معرفة الكون وفي اليقين بالمكوِّن.. هو فناء العبد في محبة مولاه وأن يكون هدفه ربه ورضاه.. يتضاءل الكون كله بما فيه ومن فيه أمام ناظري المحب فلا يرى إلا مولاه..

إن أعطاه الله من العرش إلى الفرش يقول: لا.. إياك أريد.. لا يريد العطاء والنعم ولكن يريد المنعم المعطي.

تغيب الأغيار عن ناظريه . . ولا يرى إلا ربه الحبيب القريب .

المعطيات الدنيوية والنعم المادية والهبات والمنح في منطق المحب المتفاني قيم لا وزن لها لأنه لا يحس إلا الرضا ولا ينعم إلا بالقرب ولا يسعد إلا بالأنس والشوق، لا اختيار له أمام اختيار مولاه يذعن بالقضاء ويرضى بما قدر الله . . ويصبح رضاه وسروره - كما قال عمر بن عبد العزيز - في مواقع القضاء والقدر أيًّا كانت صوره .

هو مع الخلق يعيش معهم ويحيا حياتهم ولكنه بروحه ووجدانه مع رب الخلق لا يرى إلا جوده ووجوده .

يقول صاحب كتاب «كشف المحجوب» : المراد بالفناء فناء إرادة العبد في إرادة الله . . لا فناء وجود العبد في وجود الله .

وفي دنيا التصوف نجد نماذج لبعض الشخصيات كان ماضيها خطايا وآثاماً وأوحالاً وذنوباً . ثم أحبت وصهرها الحب فنقّاها . . ثم تجردت لهذا الحب وفنت فيه فلم تر إلا حبيبها سبحانه وتعالى وإذا تركنا دنيا

التصوف إلى دنيا الناس . .

دنيا البشر نجد نماذج وألوانا لمحبين فنوا في غاية واحدة هي حب حبيبهم وحده . .

فقيس بن الملوح حينما اشتعلت النار بين كفيه لم يحس اشتعالها وسريانها وهو في حضرة حبيبته ليلى التي هام بها وجن جنونه من أجلها ولم ير في الوجود إلا هي . . وهي وحدها .

ويقول الإمام القشيري في رس رقد ترى الرجل يدخل على ذي سلطان فيُذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه وعن السلطان وعن نفسه لم يمكنه الاخبار عن شيء . . ثم يقول القشيري : قال الله تعالى : ﴿فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾ لم يجدن عند لقاء يوسف بغتة ألم قطع الأيدي وهن أضعف الناس ولكن : ما هذا بشراً ـ ولقد كان بشراً ـ وقلن ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ ولم يكن ملكاً فهذا تغافل مخلوق فما ظنك بمن تكاشف « أزيلت عنه الحجب » بشهود الحق سبحانه ، فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه فأي أعجوبة فيه؟!

قالوا . . عن الحب

«هي أقوال وتعريفات يحاول أصحابها أن يلقوا شعاعاً يكشف النقاب عن معنى الحب . . أقوال لعلماء اللغة، وفقه الله والشعراء وروّاد التصوف . .
فهل قرّبوا معنى الحب إلى القلب ذلك ما سنراه من أقوالهم»

عرّف اللغويون الحب فقالوا: هو المحبنة والمودة. والحُباب [بضم الحاء]: الحب والود . .

والحبيب: المحب والمحبوب، والحِب [بكسر الحاء] المحبوب.

وقالوا: حبَّه، وأحبه، واستحبه كلها بمعنى واحد: أظهر المحبة له.

واللغويون وقفوا جهودهم حول تبيان معنى

الحرفين: الحاء والباء وما يتفرع منهما، وداروا جامدين حول ذلك فحسب، ولعل لهم العذر، فالصنعة ـ كما يقولون ـ تحكم، وصنعة اللغويين تبيان المضمون فحسب.

ولعلماء الألفاظ وفقه اللغة اتجاهات وتفريعات وتسميات ومسميات، فقالوا: إن أصل كلمة الحب، معناها مأخوذ من حَبَب الأسنان، وهو صفاء الأسنان وبهاؤها ونقاؤها فكأن محبة المحب هي صفاء وقته وضياء نفسيته ونقاء مودته.

وقيل: أصله من الحب، وهو القُرط، لأن القرط يهتز ويميل ويضطرب في أذن المرأة المتحلية به وكذلك المحب قلِق يخشى على حبه وعلى حبيبته فلا يثبت ولا يستقر.

وقيل: الحب مأخوذ من حباب الماء، وهو معظمه، فيكون على هذا اسماً لأعظم ما في القلب.

وقيل: الحب أصله من اللزوم والثبات من قولهم: أحبّ البعير إذا برك فلم يقم. وكذا المحب ثابت ملازم لا يفارق ذكر محبوبة قلبه.

وقيل من الحب، وهو: الخابية «أي الجرة

الكبيرة» والخابية لا تسع غير ما ملأها من الماء، وكذلك القلب لا يسع غير ما ملأه من الحب.

وقيل: الحب مشتق ومأخوذ من الحباب [بفتح الحاء] وهي الفقاقيع التي تعلو الماء عند صب ماء آخر عليه فيكون على هذا اسماً لغليان القلب وفورانه عند الشوق والتطلع إلى لقاء المحبوب.

وأما علماء التحليل والتعليل من هؤلاء اللغويين فقد قالوا: إن كلمة الحب «بضم الحاء» أكثر استعمالاً لأنها تدل على الشدة: شدة الحب، لأن حركة الضم أقوى من حركة الكسر أو الفتح «فأعطوا كلمة الحب حركة الضم، ضم الحاء، والضمة أقوى الحركات وأشدها وذلك إشارة إلى شدة الحب» وقالوا: إن الحِب «بكسر الحاء» هو المحبوب والكسرة أخف من الضمة، لذلك أعطوا الحِب الذي هو المحبوب تلك الحركةالخفيفة وهي الكسر إشارة إلى أن المحبوب خفيف على القلوب ذكره مطاع لديها أمره ونهيه.

أما الشعراء فقد قالوا عن الحروف التي تتكون منها كلمة «المحبة»:

ميم المحبة: جُمعت أطرافها

فتشير للجمع الرفيع الشان

والحاء لما فرقت للفرق قد

أضحت تشير ومنزل الفرقان

والباء إعطاء العبودية حقها

بتحقق في السر والإعلان

والهاء هويته وقد جلّت عن

الإدراك ذات مالها من ثاني

والأبيات ـ كما نرى ـ يغلب عليها التكلف والصنعة وخلوها من العاطفة الدافقة.

أما علماء المعاني من اللغويين فقد كانت لهم بالنسبة للمحبة آراء وتفاريع وتقسيمات، فقالوا: المحبة: ميل الطبع إلى الشيء لكونه جميلاً لذيذاً عند المحب.

فإن تأكد الميل وقوى سمى «صبابة» لانصباب القلب إليه بالكلية.

فإذا قوى سمى «غراما» لأنه يلزم القلب كلزوم الغريم[1].

(١) الغريم هو صاحب الدين الذي يلازم المدين.

فإذا قوى سمى «عشقا» أي إفراطا في المحبة .

فإذا قوى سمى «شغفا» لأنه يصل إلى شغاف القلب وداخله .

فإذا قوى سمي «تتيما» أي تعبدا لأنه يجعل المحب ويصيره عبدا للمحبوب، فيكون ذلك المحب متيماً مأموراً، ومغرماً مأسوراً .

* * *

والحق أن الحب الحيّ المتدفق ، الصاعد مع الأنفاس المتجدد مع النبضات، لا تفي الكلمات . . مهما جلت أو قلت ـ في تبيان حقيقته والإحاطة بكنهه . .

فاللغويون ـ وغيرهم ـ مهما قالوا . . وجالوا في تبيان المعنى ومشتقاته فهي محاولات منهم . . محاولات فحسب . . لا تصل إلى الفور والكنه والحقيقة واللب . .

ولنقف هنيهة مع هذا المغرم المحب اللغوي الذي أورده أقواله عن الحب ونوره وخمره في قالب ينبىء عن تمكنه في اللغة وحبه للسجع والجناس

والزخرف اللفظي قال هذا المحب الولهان:

«من بالإله الحق ذهب فهو ذهب.. إن الذي به الوله، أنا به وَلِه، منْ كان بالله غناه ذهب عنه غناه، لا يستوي اللاهِ، وأهل الله: هذا بطاعته بان، وذلك بمعصيته بان، ما كل من سلك البَّر بُّر ولا كل من ركب البحر بحر، ما دامت نفسك بشهواتها تحت رقٍ، فأنت معها أبدا تحترق، باختلاف الأطوار اختلفت الأوطار، نور المحبة إذا لاح لم يبق لك من لاح[2].. شتان بين محبٍّ في باب ربه يتذلل، وبين محبوب على مولاه يتدلل، شتان بين من هو باعتقاده قار[3]، وبين من هو بانتقاده فار، قد سقاني من براني شرابا شفاني به ورباني، وهو الذي أوصى بي، بصدقه على أوصالي، طابت خمرة المحبة وطيبت النفوس لما شربها القوم بحضرة القدوس..» إلخ.. وقال الصوفية عن الحب:

الحب عندهم بكل ما يحويه من إلهام وإشراق وفيوضات ونفحات، الحب بأحاسيسه ومواجيده..

(٢) لاح: لائم.

(٣) قار: ساكن راضٍ.

بهذه المعاني والمقامات، لا يمكن تحديده عند الصوفية ولا تعريفه ولا شرح حقائقه وأسراره.. إنما الحب عندهم يُحَدُّ باللفظ، وباللفظ فقط، ويعرف بالكلمات وبالكلمات فحسب، أما الوصول إلى معرفة كنهه وتعريف حقيقته والغوص عن معناه في شمول وإحاطة فذلك فوق الطاقة..؟ إذ الحب يُحَسُّ ولا يوصف، ويعرف ولا يعرَّف.. يقول محيي الدين بن عربي: «من حدَّ الحبَّ ما عَرَّفه، ومن لم يذقه شرباً ما عرفه، ومن قال رويت منه ما عرفه، فالحب شراب بلا ريّ..».

وهكذا الحب شوق دائم وحنين دائب وهيام لا حدّ له، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك ما هو أتم وأوفى..

وسئلت رابعة العدوية ـ وهي في دنيا التصوف رائدة من رواد المحبة الإلهية ـ سئلت: كيف رأيت المحبة؟ قالت: ليس للمحب وحبيبه بينْ، وإنما هو نطق عن شوق ـ ووصف عن ذوق، فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف، وكيف تصف شيئاً أنت في حضرته غائب، وبوجوده دائب وبشهوده

ذائب، وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن وبسرورك له ولهان فالهيبة تخرس الألسنة عند الأخبار والدهشة تعقل العقول عن الإقرار، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار، فما ثَمَّ إلا دهشة دائمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، والمحبة بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة:

كأسي وخمري والنديم ثلاثة
وأنا المشوقة في المحبة رابعة
كأس المسرة والنعيم يديرها
وإذا المدام على المدى متتابعة
فإذا نظرتُ فلا أرى إلا له
وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلي إني أحب جماله
تا الله ما أُذني لعذلك سامعة
كم بتّ من حرقي وفرط تعلقي
أجري عيوناً من عيوني الدامعة
لا عبرتي ترقا، ولا وصلي له
يبقى ولا عيني القريحة هاجعة

ويقول معروف الكرخي: «إن محبة الله شيء لا

يكتسب بالتعليم، إنما هي هبة من الله وفضل».
ويقول ابن القيم في وصف المحبة: لا تُعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها، وفرق بين الذوق والوجود، وبين التصور والعلم، فالحدود والرسوم التي قيلت في المحبة صحيحة، غير وافية بحقيقتها بل هي إشارات وعلامات وتنبيهات». حقاً، إن هذه التعريفات تلقي شعاعاً على الحب الإلهي ولكنها لا تحده ولا تعرفه التعريف الجامع المانع كما يقولون، ولا تعرفه التعريف الكامل المحيط الذي يتذوقه صاحبه ويحسه فالكلمات والألفاظ مهما سمت وتسامت ومهما ارتفعت وبلغت فإنها لا تصف النور إلا بأنه نور. ولا تصور الشوق الا بأنه شوق.

أما ما تنطوي عليه تلك المسميات ومضامينها الدقيقة فأسرار لا يعلمها إلا من انفعل بها وعاشها وهام وعانى.. لا يعرفها إلا من ألهم النور وعاش به وله، ومن نعم بالإشراق والأشواق وأحس كل ذلك يملك عليه أقطاره وكيانه ووجدانه.

أما الكاتب الصحفي الأستاذ مصطفى أمين فله «فكرة» عن الحب والمحبة ننقلها من «أخباره» قال فيها: جاء الشاب الناجح يستشيرني: أي النساء

يتزوج؟ هل يتزوج الفتاة المثقفة التي تجيد اللغات الأجنبية ليصحبها في رحلاته المتعددة إلى أوربا وأمريكا؟ أم يتزوج الفتاة الأنيقة الجميلة ذات الشخصية الجذابة التي تقف بجواره في الحفلات والاستقبالات وتسرق له الأضواء، أم يتزوج امرأة تعمل فتعرف قيمة العمل وتقدر عذابه ومشاقه ومتاعبه فلا تثقل عليه بمشاكلها التافهة وهو غارق في الصفقات الكثيرة والأعمال الضخمة؟ أم يتزوج ست بيت تجعل بيته الجنةو التي يستريح فيها من جحيم العمل المتواصل!

قلت له: أنت تحتاج إلى امرأة فيها صفات متعددة، هي مزيج من العصا التي تتوكأ عليها وأنت تصعد الجبل، والمظلة التي ترفعها فوق رأسك وأنت تسير في أمطار الحياة، ومانعة الصواعق التي تصمد للأعاصير. أنت محتاج إلى مصباح تحمله وأنت تمشي في الظلام، وإلى «بوصلة» تهديك في التيه، وإلى خزانة تودع فيها أسرارك، وإلى «فرامل» توقفك عندما تندفع وإلى روح قوية تمنعك من أن تتخاذل وأنت تواجه ضربات الأعداء، وإلى علبة أسبرين عندما تشعر بالصداع، وإلى صوت جميل يغني لك وأنت

تغمض عينيك على أنغامه، وإلى منديل يمسح دموعك ويجفف عرقك، وإلى مرهم يبرد جروحك وإلى حاجز للصوت يمنع وصول الضوضاء إليك، وإلى مستشار ترجع فيه إلى مشاكلك. . فإذا بحثت عن حكيم وجدتها بين يديك، وإذا بحثت عن صديق وجدتها أمامك، وإذا افتقدت الأم وجدت فيها حنانها وحدبها وتضحيتها.

الرجل العادي يحتاج إلى امرأة عادية. . ولكن الرجل الناجح، هو رجل غير عادي. ولهذا يحتاج إلى امرأة غير عادية، تحتمل أضعاف ما تحتمل أي امرأة أخرى، تصبر أكثر مما صبر أيوب. تصمد كأنها جبل، تستطيع أن تكون عمود الرجل الفقري وقلبه وعقله في وقت واحد. تعيد له الأمل عندما ييأس. . وتحبب له الكفاح والثبات عندما يتراجع. وتبتسم في الوقت الذي تغيب فيه البسمات، وتحلم في وقت يعم فيه الكابوس، وتعامل الناس وهي في قيمة السلطان خيرا مما كانت وهي جالسة عند السفح. كلما ارتفعت تواضعت، وكلما علت مدت يدها إلى الواقعين على الأرض، إذا تعالى زوجها جذبته إلى تحت، وإذا

أفلس عاملته كأنه أغنى مَنْ على الأرض.

قـال لي الشاب النـاجح: مستحيـل أن أجد هـذه الزوجة.

قلت لـه: كـل امـرأة تحب ممكن أن تكـون هــذه الزوجة.

تساؤل . . ورأي

إن كثيرا من قراء كتابي هذا يتصفحون الآن صفحاته ـ في تؤدة حينا، وبسرعة أحيانا حتى يصلوا إلى الصفحات التي تجيب عن تساؤلات تدور في أعماقهم عن الحب الجسدي الذي تنبض به أجسامهم وتفيض به أحاسيسهم وحواسهم.

وعن الصفحات التي تتحدث عن النظرة الجائعة وعن الرغبة الجامحة الجانحة، وعن العاطفة المشبوبة والأشواق الملتهبة . . وأحلام اليقظة والعلاقات الجسدية بين الجنسين . . وعن الأنوثة .. عن دنيا المرأة التي يعيشها المراهقون والصبايا والشباب والتي حولها يحلمون ويخالون ويتخيلون . .

يدفعهم الحب إلى التساؤل عن معرفة رأي الدين في كل هاتيك المناحي والنواحي التي يعيشونها في دنيا الخيال . . قبل دنيا الواقع.

يتساءلون ويقولون نريد أن نعرف في وضوح وتحديد رأي الدين في حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل حبًّا جسديًّا. . وعن رأيه في القلب والميل به وإليه، وعن الجسد والسكن إليه. . وعن النظر بكل ما تشيعه وتشع به. .

تعالوا أيها المتطلبون للمعرفة نرى ونعرف في تحديد محدود وفي وضوح واضح رأي القرآن والشريعة الإسلامية في المحبة الجسدية. . وفي العلاقة العاطفية بين الذكر والأنثى.

تعالوا أيها المتطلبون للمعرفة نرى ونعرف في تحديد محدود وفي وضوح واضح رأي القرآن والشريعة الإسلامية في المحبة الجسدية. . وفي العلاقة العاطفية بين الذكر والأنثى.

تعالوا بنا إلى دنيا المرأة نجد المرأة في دنيا المرأة، نجدها: أمًّا أو بنتا أو اختا أو زوجة أو امرأة أجنبية عن الرجل لا تربطه بها آصرة من نسب أو رابطة من قرابة أو دم أو رحم.

هذه هي المواقع التي تكون فيها الأنثى في دنيا المرأة.

والمرأة في كل هـذه المواقـع لها من تعـاليم الإسلام ووصاياه وقوانينه أصول محددة ومعـالم واضحة ومـلامح ظاهرة القسمات بينة السمات.

في مجال الأمومة:

بعد أن أمر القـرآن بالإحسان إلى الوالدين وإكـرامهما وتكـريمهما نـراه يدفـع الشباب بنـات وأبنـاء وبنـين إلى حب المـرأة ممثلا في حب الأم التي خصَّهـا الإسـلام بمزيد من الاهتمامات حتى جعلها لما تحتمله ولما قدمتـه وتقدمه ـ جعلها مقدَّمة في البر على الأب.

روى الشيخـان: أن رجلا قـال لرسول الله ﷺ: من أحق النـاس بحسن صحابتي؟ قـال: أمك. قـال: ثم من؟ قـال: أمـك. قـال: ثم من؟ قـال: أمـك. قـال: ثم من؟ قال: أبـوك. وقـال «الجنـة تحت أقـدام الأمهات».

ورأى عبـد الله بن عمـر بن الخـطاب، رضي الله عنهـما، رجلا يـطوف بالكعبـة حامـلاً أمه عـلى رقبتـه، فقال: يابن عمر، أتراني جـزيتها بـه؟ قال: ولا بـطلقة واحـدة، ولكنـك أحسنت والله يثيبـك عـلى القليـل

الكثير. وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: أتت إليّ أمي وهي مشركة وكانت راغبة في مالي، طامعة في عطائي فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت على أمي وهي راغبة أفأصلها وأتصدق عليها مع كفرها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم صلي أمك».. وهل الحب إلا العطاء.. والوصل.. والطاعة.. والقول الكريم؟

أما المرأة الأجنبية عن الرجل:

فهي في عرف الإسلام ذات مصونة، وحمى ممنوع، وفاكهة محرمة لا تحل إلا بعقد مشروع، وبهذا العقد يحمى الإسلام المرأة ويصون جسدها من أن يُبتذل ويحافظ على شرفها من أن يدنس، وعلى كرامتها من أن تهدر أو تلوث، ويحافظ على الأنساب من أن تختلط وعلىالأعراض من أن تُنتهك أو تُغتصب حتى ولا أن تلتهم بالعين، فالنظرة حرام ـ عدا الأولى ـ النظرة الأولى لك والثانية عليك «من نظر إلى أمرأة أجنبية بشهوة صبَّ في عينه الآنك يوم القيامة» والآنك الحديد المذاب. والإسلام قد وقف من النظرة وقفة وقائية حاسمة، لا لذاتها، بل لما يترتب عليها..

النظرة في حد ذاتها ليست بذات أهمية في نظر الشرع. . النظرة بغض النظر عن نتائجها يقف الدين منها موقفا سلبيًا سلميًا. . أما إذا تكررت وتمكنت، فأهاجت الأحاسيس ودفعت الدم حاراً جارفا في الأوردة والعروق ففقد الناظر سيطرته على شهوته وحفظ فرجه. . فهنا الخطر كل الخطر، والإسلام يحول بين المرء والأخطار؟ لذلك جعل هذه النظرة الإيجابية التي تُسلم إلى الزنا نظرة مسمومة قال الرسول عليه السلام عنها. «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه إيماناً يجد حلاوته في قلبه» ويقول الله سبحانه ناهياً عنها: **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾** «من أبصارهم»، ولخبراء الألفاظ والتعابير وقفة إزاء «من» هذه، إذ غض البصر كله مستحيل، لذلك كان من بلاغة القرآن وواقعيته أن عبّر بـ «من» ولم يقتصر التحذير فيها على الرجل فقط، بل والمرأة أيضا حرم الله أن تنظر نظرة جائعة إلى شاب. . حتى ولو كان أعمى.

المرأة لا تحل للرجل والرجل لا يحل للمرأة إلا برباط مقدّس وميثاق غليظ بالزواج، والزواج محبة

وتعاون وسكن ومودة وعلاقة شريفة وارتباط جسدي مشروع.. هو الطريق الذي سارت فيه الإنسانية منذ مولدها إلى اليوم.. وستمضي فيه مواكب البشر إلى نهايته حيث تكون أيضا نهايتها، من ذكر وأنثى بدأت حياة البشر، ومن بيت واحد نبعت الإنسانية بيت عماده آدم وحواء، ومن بينهما تكونت أسر وسلالات، ومن بينهما تفرعت بيوتات وقامت مجمعات وظهرت أمم ودول، وتبارك الله الذي **﴿خلق من الماء بشرا فجعله نسباً وصهراً﴾**.

والزواج في نظر القرآن ليس وسيلة لحفظ النوع الإنساني فحسب، بل هو فوق ذلك وسيلة للاطمئنان النفسي والهدوء القلبي والسكن والوجداني **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**

[سورة الروم: آية ٢١]

والقرآن بهذا النص يضع أسس الحياة والعاطفية الهانئة الهادية، فالزوجة ملاذ للزوج يأوى إليه بعد جهاده اليومي في سبيل تحصيل لقمة العيش، ويركن إلى مؤنسته بعد كدّه وجهده وسعيه ودأبه يلقي في

نهاية مطافه بمتاعبه إلى هذا الملاذ. . إلى زوجته التي ينبغي أن تتلقاه فرحة مرحة، طلقة الوجه، ضاحكة الأسارير، يجد منها آذناً أذناً صاغية، وقلباً حانياً، وحديثاً رقيقاً يخفف عنه ويذهب ما به.

والزواج من أجل ذلك كان ترويحاً وإيناساً وتجاوباً وتعاطفاً؛ لذا دعا الدين إليه ورغّب فيه، ومهدّ له الأسباب، ومكّن له في نفوس المؤمنين **﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾**.

[سورة النور آية ٣٢]

وقد وقف الإسلام من العزوبة موقف الكاره الكاشح بدليل قول رسول الله ﷺ لعكاف بن وداعة الهلالي: «ألك امرأة؟ قال: لا قال: ولا جارية؟ قال. لا، قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم والحمد لله، قال: فأنت إذن من إخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح».

إن من شياطين الإنس هؤلاء الذين كلهم قوة وصحة وشباب ثم يعزفون عن الزواج مع مقدرتهم عليه وعلى تكاليفه ويركنون إلى العزوبة، فتتلوث عواطفهم

بأفكار سوداء، وتتوارد على خواطرهم خاطرات خطرات تنزع بهم إلى المعصية، وتنحرف بهم عن الطريق السوي المستقيم، وتميل بهم إلى المآثم والشرور لذا وصفهم رسول الله ﷺ بقوله: «شراركم عزابكم».

وما وصفهم الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بهذا الوصف.. وما وقف من العزوبة ذلك الموقف إلا لأن إثمها أكبر من نفعها؛ فهي تسير بأصحابها في طريق الفناء والدنس، وتبعد عنهم الاستقرار، وتحرمهم عاطفة الأبوة ونعمة النسل.

وقد تهب رياح حقد وكراهية فتثير في أرجاء البيت عواصف وزوابع.. وقد تظلل سماء البيت سحابة قاتمة سوداء تعكر الصفو وتنذر بالقطيعة والتفرق.. وقد تمر فترات تتقلب خلالها القلوب فتنقلب آيات المحبة والرحمة إلى بغض ونفور، وتضيق نفس الزوج أو الزوجة بالمنزل ومن فيه وما فيه.. وإن لم يثبت البنيان العائلي أمام ما اعتراه من هذه الطوارىء والمفاجآت تركت أخاديد عميقة في بنائه وإن لم تكن الحياة الزوجية وقت ذاك مدعمة بحسن العشرة

والمحبة والشورى تقوض المنزل وتبددت الأسرة وتفرّق الشمل.

والقرآن الكريم قد عالج هذه الحالات التي تعتري نفسية الأزواج.. فوضع لهم ذلك المبدأ ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ والمعاملة باللطف واللين، فإن استبدت بهم النوازع وتحجرت العواطف وتملكتهم الكراهية.. فعسى أن يكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا.. وكما يكمن البرء في مر الدواء . وكما تحمل الشدَّة في طياتها بوادر الفرج، فقد يكون وراء الكراهة ما وراءها من جليل الخير وجزيل النعم ﴿**وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ على أن حسن المعاشرة لا يطالب به الرجل وحده، ولا المرأة وحدها، بل هو قدر مشترك بينهما يطالب به كل منهما.

إن كلمة رقيقة من أحدهما للآخر.. أو دعابة مستملحة، أوهدية في مناسبة. وما أكثر المناسبات في الحياة الزوجية ـ أو مشاركة رمزية من الزوج في أعباء المنزل وأعماله.. وإن هذه الأشياء التي تبدو لدى البعض أشياء تافهة صغيرة لها وقع في النفوس، ولها

نفع أي نفع عندما تتأزم الأمور وتتعقد فلا يحلها ولا ييسرها إلا هذه الأشياء التي تبدو هينة يسيرة، فرب كلمة طيبة أضاءت آفاقاً وفتحت مغاليق، وبددت ماران من سحب الخلاف في أجواء البيت.

إن الإسلام قد اهتم بالعلاقة الجنسية المشروعة.. وأراد الحفاظ على هذا التلاقي الطاهر فوضع له الحدود التي تتسامى به حتى يصل إلى درجة العمل المتعبد به الذي عليه المثوبة والأجر كما جاء في حديث رسول الله ﷺ مع صحابته الذي قال لهم فيه: إن في بضع أحدكم صدقة ولما أبدوا دهشتهم قال لهم ألو وضع النطفة في حرام أكان عليه إثم ووزر.؟.

فلما أجابوا بالإيجاب قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر. والحديث كما رواه مسلم: «إن في بضع أحدكم لصدقة قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر».

كذلك قرر رسول الله ﷺ أن اللقمة التي يرفعها الزوج إلى فم زوجته.. له صدقة ومثوبة وأجر على ذلك العمل الذي يوثق المحبة ويمكن المودة بين الزوجين يقول عليه الصلاة والسلام: «ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى فم امرأته» «.. إن في اللقمة ترفعها الزوجة إلى فمها لأجراً لزوجها الذي سعى في سبيلها».

القُبلة:

وقد اهتم الإسلام بالقبلة.. والقبلة لحن الحب المميز يوقع بالشفاه.

والقبلة: حديث بلغة الشفاه حديث طلي حلو يترجم عن دفين العواطف ومكنون الأحاسيس..

القبلة: توقيع بالشفاة الأولى على ميثاق الشوق ومعاهدة المحبة..

القبلة: همزة وصل بين قلبين متحابين..

وقبلة الزوج لزوجته: هي القبلة التي أولاها الإسلام عناية بالغة فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يقعنَّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما

رسـول. . قيل: ومـا الـرسـول يـا رسـول الله؟ قـال: القبلة والكلام».

والـرسـول عليـه السـلام بهـذا الحـديث النبـوي الاجتمـاعي النفسي يقنن مبدأً من أهم مبـادىء الحيـاة الجنسية العملية القويمة. . فلا بد للنتيجـة من مقدمـة، وللغـاية من وسيلة وطـريقـة، وأول طـريقـة للتجـاوب الجنسي السعيـد: قـبـلات، وكلمـات، وهمسـات ولمسـات. . تهيىء الجسد وتـوحد الـرغبـة. . وتـوصـل للامتزاج والتجاوب الحق.

والعمليـة الجنسيـة إذا كـان فيهـا تجـاوب ووفـاق جنَّبت كل ما يقف في طَريق الحياة الـزوجية من صعـاب وذللت كـل ما يـوجـد أوْ يجـدّ من عقبـات. . وسـارت سفينة الحياة الزوجية ثابتة وسط الأنواء والأعاصير.

أما إذا انعدم التجاوب جدّت المشكـلات ووُجدت المشاكسات والمنازعات. .

وكثـير من المشاحنـات والاهتزازات الأسـرية، ولا سيما في بدء الحياة الزوجية، مردّها إلى اضطراب الحيـاة الجنسية، فكم من أسر تقـوضت؛ لأن التكافؤ الجنسي والتـوافق الجسـدي معـدوم بـين الـزوجيـة، أو لأن

معاشرتهما الجنسية قائمة على الفوضى وعدم الانسجام. . فلا وسائل. . ولا مقدمات، بل قسر!! وتوحش!! واغتصاب!! أو أنانية إذ يقضي الرجل وطره من زوجته ويتركها قبل أن تقضي وطرها منه، مخالفاً بذلك قول رسول الله ﷺ: «إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها. . ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها».

وملاعبة الرجل امرأته من أهم المسائل التي عنى بها علماء فلسفة التناسليات في العصر الحديث وقد وضعها الإسلام قبلهم بأكثر من أربعة عشر قرناً وضعها موضع العناية والاهتمام وذلك لتنبيه الغافلين إلى أمور تتحقق بها السعادة الزوجية وتزكو بها نار الحب عند الزوجة، وتجعل العلاقة بين القرينين أرفع من أن تكون مجرد عمل آلي بعيد عن العطف والمودة، عارٍ من الحب والحنان، قال جابر بن عبد الله نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة».

والقبلة الزوجية عند الفراق والوداع وعند اللقيا ليست وليدة المدنية الحاضرة، ولا نابعة من عادات الغرب، إنما هي تقليد إسلامي حرص عليه كُثْر من

المسلمين الأوائل وبخاصة بعد أن جعل الإسلام القبلة لا تفسد صوماً ولا تنقض وضوءاً، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء ثم لا يعيد الوضوء».

وكذلك قالت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ إنه كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يجدد وضوءاً.

قال عمر بن الخطاب: هششت[1] فقبَّلتُ وأنا صائم، فقلت: يا رسول الله، صنعت اليوم أمراً عظيماً، فقبلت وأنا صائم. فقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيت لو مضمضت من الماء وأنت صائم؟ قلت: لا بأس. فقال صلوات الله عليه وسلامه: فمه؟!».

وفي دنيا الطفولة:

نجد الأنثى طفلة.. تلهو في سذاجة وبراءة وطهارة ونقاء وصفاء وكانت البنت تُوءدُ، قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام حرم وأد البنات وطمأن الفقراء الذين كانوا يلجئون الى هذه الجريمة النكراء

---

(١) أي ضعفت.

دفعا للمتربة، ودرءاً للتكاليف والالتزامات، فذكرهم بأن الله سبحانه هو الكفيل برزقهم ورزق أولادهم، وأن قتلهم كان خطئاً كبيرا: **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾**.

[الأنعام: ١٥١]

وقال للأغنياء الذين أخذتهم العزة بالإثم، فتخيلوا أن الأنثى مجلبة للهم.. أو قالوا إنها قد تلجىء إلى المسغبة أو تدفع إلى العار والمذمة، فاتخذوا كل هذا ذريعة لوأدها، فأبان لهم نتيجة هذه الفعلة الشنعاء ونهاهم عن الوقوع فيها، ودفع هؤلاء الذين يئدون البنات من أولادهم بضيق العقل وبالسفه والضلال: **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾**.

[سورة الإسراء: ٣١]

﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

[الأنعام الآية. ١٤٠

فكتب بهذا النهي للأنثى الحياة..

كذلك نهى الإسلام عن إيثار البنين على البنـات، لأن الإيثـار يوخـر الصدور ويـولد الحـزازات؛ لذا نهى الإسلام الآباء أن يؤثـروا بعض أبنائهم على بعض حتى لا يمتلىء الأبناء حقداً عندما يرون أخـاهم الأصغر وقـد خصه الأب بـالعـطف وحتى لا تعضّ نفـوس البنـات حسـرات حينـما يـرينٍ أنهن أقـل من إخـوتهن البنين إنصافا ومساواة وتقديراً . .

والإسـلام ـ في نصوصـه العديـدة ـ تجده قـد دفـع الآبـاء إلى حب البنـات . . وأغـراهم بهـذا الحـب، وحـرضهم عليه . . روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له أنثى فلم يهنها ولم يؤثـر ولده عليهـا أدخله الله الجنـة» وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: «من عـال جـاريتـين» ـ أي من ربّي بنتـين ـ حتى تبلغـا جـاء يوم القيامة أنـا وهـو كهـاتين. «وضم الرسـول عليـه السلام أصبعيه: الوسطى والسبابة».

وقـال: «من كان لـه ثـلاث بنـات فـأنفق عليهن، وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنـه أوجـب الله لـه الجنة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له».

وقـد استل القـرآن بمبضعه الإلهي من جسم الأمـة

العربية هذه الأدواء المزمنة التي أزرت بالأنوثة وأضنت المرأة دهراً طويلاً . .

ووضع لدنيا المرأة تلك التشريعات التي حمتها وصانتها وأحاطتها بسياج من العزة والرفعة وحسن التقدير.

سمّو . . وعفة :

سمو القرآن . . وعفّة أسلوبه، وبراعة إشاراته وكريم توجيهه يظهر عند تعبيره عن «التلاقي الجنسي» مرّة بالمباشرة، وأخرى بالملامسة، وثالثة بالمواقعة أو الإفضاء . . أو المضاجعة، أو «الإتيان».

والمستقرىء لألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته في هذا الميدان كقوله :

﴿فالآن باشروهن﴾ .

﴿أو لامستم النساء﴾ .

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنت لباس لهن﴾

﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ .

﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ .

المتتبع لهذه الآيات السالفة يجدها، ومثيلاتها تتسم

بالإشارة والتلميح، أو يلفها ملفوفة في غلالة من رقيق اللفظ، أو مصبوبة في قالب كنائى جميل: ﴿لا تقربوهن.. فلما تغشاها.. لامستم النساء﴾ أو تشبيهات أخّاذة! كتشبيه النساء بالحرث في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾.

ولعل القرآن يهدف من وراء تعابيره وإشاراته تلك أن يوجه الأنظار إلى لون من التربية الاجتماعية يربّي به الخلائق، ويرشد بوساطته الزوجين إلى أن التقاءهما الجنسي يجب أن يحاط بسياج من الرقة والأدب، والبعد عن المصارحة والمكاشفة، بل تكفي الإشارة أو اللمحة، أو إبداء الزينة، أو التجمّل.. والتطيّب.. دون الدعوة المباشرة من أحد الزوجين.

وفي تفسير المنار جـ ٢ ص ١٧٦: «وقد علمنا القرآن الكريم النزاهة في التعبير عن هذا الأمر عند الحاجة إلى الكلام فيه بما ذكر من الكنايات اللطيفة، كقوله: ﴿لامستم النساء ـ أفضى بعضكم الى بعض ـ دخلتم بهن ـ فلما تغشاها حملت..﴾..

ومن الآداب الإسلامية التي أوصى بها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام عندما يدخل الرجل

على أهله أن يقول: «اللهم بارك لي في أهلي وبارك لأهلي فيّ، وارزقني منها، وارزقها منيّ، واجمع بيننا ما جمعت في خير وإذا فرقت بيننا ففرق في خير».

أو يقول كما قال الرسول عله الصلاة والتسليم: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن قضي بينهما ولد لم يضره الشيطان».

من هذا كله.. وبعد هذا كله يتبين أن الكتاب الحكيم قد تعرض لتلك الحياة وتلك العلاقة الجسدية في ثوب كله طهارة ونقاء، وفي قالب وقائي علاجي وفي أسلوب كنائي جميل..

حقّاً إن القرآن لم يتعرض لها في إسهاب ولم يذكرها في تفصيل وتفسير. وإنما وضع - كما هو شأنه - قواعد كلية لها وأصولا نفسية، وأسسا اجتماعية هي من أسس السعادة في تلك الحياة.

ثم جاءت السنة النبوية ففصلت وفسرت هاتيك الخطوط العريضة. وأبانت مساتير الروعة الإلهية، وكشفت للعقول وللقلوب عن أسرار لو عقلتها الإنسانية لعزّت وسادت.

إن من أنصع الأدلة على صدق ذلك الكتاب السماوي وواقعيته أنه تناول هذه النواحي العاطفية وتلك المناحي التي تتصل بالوجدان والغريزة، فهذبها ووضع لها الحدود والقوانين الكفيلة بتنظيمها والاتجاه بها وجهة صالحة خيّرة.

فهو ليس كتاب ترهيب فحسب، بل هو كتاب تشريع وإنسانية كاملة تناول الحياة بكل ما تزخر به من حب ـ وما تفيض به من عطف، وما تغصّ به من مِقَةٍ وحنان.

* * *

وبعد كل هذا..

من قال إن القرآن الكريم لم يتعرض للحب الجسدي.. ولم ينظم الناحية الجنسية فقد أغْرب!! وكذب على الله الذي قال: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾.

والذي يرجع إلى كتاب «الإسلام والحياة الجنسية»[٢] يجده قد عرض حديث القرآن عن هذا

---

(٢) وهو من تأليفنا وتقدم الإمام المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود.
الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.

الموضوع. . موضوع الجنس الذي شغل ويشغل أذهان الكثيرين من شباب الإسلام.

وقد خصص هذا الكتاب كل صفحاته للحديث عن التربية الجنسية الصحيحة الهادية الهادفة المستقاة من شريعتنا المستوحاة من كتاب الله النابعة من الهدي الإلهي والتوجيه المحمدي.

وكان بذلك ـ فيما أعلم ـ أول كتاب في المكتبة القرآنية بحث في دنيا الدين عن دنيا الجنس واستخرج من المصادر التشريعية الإسلامية قواعد هذه الحياة.

يقول هذا الكتاب تحت عنوان الاعتزال الجنسي ص ٧١: وليست المرأة كلها حلالاً لزوجها يستمتع بجسدها متى شاء أنى شاء!! فقد نظم القرآن ـ وهو الحكيم ـ الاتصال الجنسي، فأباحه في أوقات، وحرّمه في أوقات أخرى، أباحه عندما لا يكون من ورائه ضرر أو أذى أو مرض، وحرّمه في أزمان يكون الجسد فيها تحت وطأة أزمات خاصة وإفرازات معينة.

جسد المرأة تعتريه فترة شهرية تجعله غير مهيأ لذلك الاتصال، ولا صالح لتلك المباشرة. . فترة اضطراب عضوي مصحوبة بآلام وسيلان دماء

وأقذار، ونجاسات . .
لـذلـك حـرّم الإسـلام عـلى الـرجـل في أوقـات الطمث هذه أن يلتقي بـأمرأتـه التقاءً جنسياً . . وأباح لـه أن يستمتع بـالجسد، مـا عدا مـوضع الأذى، وهـو مكان خروج الدم حتى تطهر امرأته .

فـإذا تطهـرت بـزوال الـدم والاغتسـال أتـاهـا في المكان المخصص لذلك الإتيان . .

ركب الصحابي « مسروق » إلى عـائشة رضي الله عنها، فقال حينما وصل الى بيت النبي : السـلام عـلى النبي وأهل بيته . فقـالت عائشة : وعليك السـلام . . ولما أذنوا لـه بالـدخول قـال : إني أريد أن أسـألك عن شيء وأنا أستحي ! ! فقالت : إنّما أنا أمـك وأنت إبني فقـال : ما للرجـل من إمرأتـه وهي حائض ؟ قـالت : له كل شيء إلا فرجها .

وفي حـديث خزام بن حكيم أنـه سأل رسـول الله ﷺ . ما يحل لي من إمرأتي وهي حائض ؟ .

قال : لك ما فوق الإزار . أي ـ مـا فوق السـرة ـ أما الدبـر فهو حـرام على الـزوج في جميع الحـالات وفي كـل الأوقـات . قـال مجـاهـد : « دبـر المـرأة مثله من

الرجل ».

وقد أثبت الطب الحديث أن المعاشرة الجنسية أيام الطمث تسبب أمراضاً تناسلية وتصيب الجنين بالزهري أو الجزام أو العته أو التشويه.

وهكذا يكشف لنا الطب الحديث عما وراء هذا النهي الإلهي من حكمة، وعما يقبع خلف ذلك التحريم الجنسي أيام الحيض من جليل الفائدة وعظيم النفع **﴿ويسألونك عن المحيض، قل: هو أذى، فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾**.

يقول صاحب « المنار » في تفسير هذه الآية: يجب على الرجال ترك غشيان نسائهم زمن الحيض؟ لأن غشيانهن. سبب للأذى والضرر، وإذا سلم الرجل من هذا الأذى فلا تكاد تسلم منه المرأة؟ لأن الغشيان يزعج أعضاء النسل فيها إلى ما ليست مستعدة له ولا قادرة عليه، لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى هي إفراز الدم المعروف ».

الدين . . . والحجاب:

ويريد الشباب أن يعرفوا رأي الدين في

الحجاب، وبخاصة بعد أن ظهرت في محيطه ألوان من الحجاب تجاوزت الحد وطفت على الجسد حتى جارت على ما أحل الله وحجبت ما ليس في إظهاره حرمة، وجعلت المرأة تسير في الطريق شبحاً أسود أو كتلة سوداء متحركة يغطي رأسها إلى أخمص قدميها حجاب كث غليظ لف الجسد كله بما فيه.. ومن فيه.

الدين يقول إن وجه المرأة ليس بعورة وكذلك كفّاها، وجل الأئمة من الفقهاء قد صرحوا وحكموا بأن جسد المرأة عورة ويستثنى من ذلك الوجه والكفان ظهراً وبطناً فهما ليس من العورة «أنظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٩٨ طبع دار الشعب».

ومن أجل ذلك أجاز الشرع للمرأة أن تطوف وقد كشفت عن وجهها ويديها.

وهذا من سماحة الإسلام ويسره.. وبخاصة في هذه الظروف التي تمر بها المرأة المسلمة ـ عاملة أم غير عاملة ـ تمر وتسير في طرقات تشابكت فيها وسائل المواصلات وتعددت وتعقدت، وعز فيها السير على الجميع.. ركباناً.. ورجالاً.

ومن هذا نرى المغالاة في صنيع بعض المحجبات اللاتي تجاوزن الحد!!.

على أن الإسلام - الوقائي - «إن صح هذا التعبير» يرى إذا كان وجه المرأة مبعث فتنة لها أن تستره وتختمر، أي تضع عليه خماراً.. ولو رقيقاً يحميها من النظرات ويقيها شر الكبوات في الطرقات التي تعج بالسائرين وتغص بوسائل المواصلات المجنونة.

للمرأة إذن أن تختمر أو تحتجب عند الإحرام أو في غيره. روى عن بعض الصحابيات أنها قالت: «كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبي بكر فلا تنكره علينا» فيجوز للمرأة المحرمة - إذا أرادت - أن تستر وجهها لتبعد نظرات يوجهها إليها من تسوّل له نفسه وهو في ضيافة الله أن يجترىء على الله.. فيمد بصره إلى وجه المرأة.

ومن نافلة القول أن نقول إن إظهار المفاتن وتعرية الجسد أمر لا يقرّه الدين يقول الله سبحانه: **﴿يـأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين**

يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين).

على النساء أن يتحشمن في ملابسهن ليقطعن الطريق على كل من يريد أن يتصدى لهن بكلمة نابية أو قولة داعرة، أو تعليق فاجر بذيء، فسليط اللسان والعابث والماجن والمستهتر.. كل أولئك يتصدون فقط لمن أبدت مفاتنها وحسرت عن فتنتها، فكأنها بذلك تدعوهن ليطرين جمالها ويثنين محاسنها.. و.. و..

وما أشبه الليلة بالبارحة!!

فلفيف من شبابنا يعاني فراغاً في وقته.. وفي عقله.. وفي عقيدته يهدد طاقته في التصعلك والتسكع في الشوارع والطرق.. لا همّ لهم إلا الانتظار على نواصي السكك وفي الحدائق يشيعون هذه بنظرة جائعة، ويستقبلون تلك بقولة جريئة مكشوفة..!!

وهذا العلاج القرآني الذي يدعو إلى التستر والتحجب ليست فائدته مقصورة على تلك الناحية النفسية السالفة فحسب، بل فيه فائدة إجتماعية..

فيه حل لأزمة!! أزمة الزواج.

فمن أسس تلك الأزمة: العُرى الذي تقع عليه أنظار الرجال في الشواطىء والمحافل وفي المجتمعات والأندية في الشوارع والنوادي والمصايف.. نساء كاسيات عاريات..

قد أُتخم الشاب بما يراه من مظاهر العرى.. فعزفت نفسه عن الزواج.

ولماذا يتزوج وهو يرى الفتاة الأجنبية عنه في متناول يده تكاد تلتهم عيناه بكل أجزاء جسدها؟! كلأ مباح.. وأرض مفتوحة.. وجسد يكاد يكون أمامه في كل آن ومكان.. يكاد يكون ملكاً له لقاء كلمة معسولة أو وعد كاذب!!

كلمة إعجاب يهمس بها في أذن فتاة فتفقد بعدها أعز ما تملكه فتاة!!

وعد زائف بالزواج يظل الشاب تحت ستاره يعد الفتاة ويُمنيها.. وما يمنيها الشاب إلّا غروراً ـ وتُغرُ الفتاة وتُخدع.. وتمكنه من نفسها، وينال منها ما ينال الرجل من إمرأته.. بل أكثر!! ثم تنتهي حياتها كفتاة

شريفة . . وتبدأ حياتها كفتاة ليل!!

وستظل أزمة الزواج قائمة ما دام العرى سائداً . .

إن الصائدين في الماء العكر الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا يقيمون الدنيا ويقعدونها ويتساءلون مستنكرين: كيف نعيش في مدنية القرن العشرين والمرأة محجبة الجسد لا يظهر منها إلا وجهها وكفاها؟!

لو علمت فتياتنا ـ وليتهن يعلمن ـ أن حل أزمة الزواج في الحجاب لأسرعن إليه، إذ كل ممنوع متبوع، وكل ما تملكه اليد تذدريه العين. . وكل نفيس تصغر قيمته عند الاستحواذ عليه.

وقد تبدو المرأة رائعة في لباس البحر الذي يكشف عن كثير من جسدها . .

ولكنها تبدو أبدع وأروع حينما لا يظهر من جسدها شيء؟ فالفضول يدفع الرائي إلى أن يستشف ما وراء الحجاب وما خلف النقاب، وأنّى له أن يرفع ذلك النقاب إلا بحقه؟!

لن يحول بين الشاب وبين التمتع المجاني بجسد المرأة إلا الحجاب الشرعي، وما أيسره على المرأة، بل وما أكرمه للمرأة.

قد تبدو كلمة « الحجاب » مظلمة خانقة مخيفة، تحمل الرق والعبودية إلى المرأة، وتعود بها القهقرى سنوات وسنوات تعود بها كما يقولون الى عهد الحريم و « المشربيات ».

ولكن ذلك دهم داهم. فما الحجاب إلاّ التحصّن والعفة والكرامة والفضيلة والاحتشام في الملبس فهو لا يتنافى مع الأناقة ولا يتجافى مع العمل، وليس معناه أن تكون المرأة بمنأى عن المجتمع قعيدة البيت حبيسة الدار!! بل معناه الحشمة والوقار والبعد عن مواطن الإباحية والتحلل والنأى « برأس مال » العفيفات عن أماكن التبذل..

وما كانت الدعوة في عصرنا إلى التبرج والتحرير إلا تغريراً بالمرأة واستغلالا لها وتزيينا لسبل الغواية أمام ناظريها لتبور في النهاية بالبوار والندم.

وما ابتلى مجتمعنا بشيء مثلما ابتلى بالسفور، فهو في مقدمة أسباب أزمة الزواج وانصراف شبابنا عن

تكوين الأسر.

إن أزمة الزواج الآخذة بالخناق، خناق الآباء قبل خناق العوانس من الأوانس اللائي فاتهن قطار الزواج. إنما تقع تبعة هذه الأزمة على الدعاة.. دعاة السفور والاختلاط.. دعاة الحرية المطلقة والأفلام الفاضحة والأقلام المسمومة والصحف التي لا ترعى إلّا ولا ذمة في شبيبتنا وبراعمنا المتفتحة.. دعاة الكلمة النابية، والصورة العارية، والكتاب المكشوف.

إن علاج هذه الأزمة يتقاسمه المصلحون الاجتماعيون.. ثم رجال الدين من أصحاب العلم والفكر والرأي والفضيلة.. وأخيراً الفتاة نفسها.

فرجال الإصلاح دورهم جد خطير، ومسئولياتهم بالغة، فهم الذين يقيمون ما اعوج في المجتمع.. ثم هم الذين يرشدون رجال الإعلام الى الطرق الواجبة التي يسلكونها لتؤدي مرافق الإعلام مهامها الصحيحة في التوجيه.

وأحياناً تعتري نفوس الشباب فترات قلق.. وتمر بحياتهم تيارات ريب وشكوك تكاد تؤدي بهم في متاهات بعيدة مظلمة لولا ما يعصمهم من ومضات

استيقاظ ضمير أو بقية من إيمان .

ويتطلع الواحد منهم إلى من يأخذ بيده ويقيله من عثرته وبلبلته فلا يجد إلا من يقدم له تعاليم جامدة منسوهة لا تشفى علة ولا تطفىء أواراً . . أو يجد متزمتاً يزيد في الهوة العميقة التي يشعر بها الشباب بين مجتمعه وبين دينه السمح فيميت في نفس الشاب عاطفة التدين ، ويئد في أعماقه صحوة الضمير، فييئس . . ويشذ . . ويند وتتحطم أمام عينيه المثل وتتهاوى القيم . .

هنا يأتي دور أصحاب الفضيلة والعلم الديني . . عليهم أن يوائموا بين الدين والمجتمع ويربطوا بين العقيدة والحياة برباط سليم صحيح . ويمكنوا للعقيدة الخالية من الترهات والخرافات في العقول والقلوب ، وعند ئذ تنفرج الأزمات وتتبخر . .

والفتاة إن طبقت بعد ذلك كله تعاليم رجال الدين والمجتمع وصارت مثالاً حياً للدين والخلق فإنها بذلك تغري الشاب بالإقدام ليتسلم منها مفتاح بيت الزوجية السعيد .

الحب . والوصل . والمعيّة . والقرب

الله مع أحبابه . .

والله يحب . . ومن أحبه الله كان مع الله .

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[1] ﴿إن الله مع الصابرين﴾[2] .

ورسول الله ﷺ يقول : « المرء مع من أحب » .

ومعية الله لمن يحبّهم . . هي معية خاصة يخص بها أحباءه وأولياءه . . وأهل حضرته وقربه . . هي معية نصر وتكريم . . معية تأييد وحفظ . . معية عناية ورعاية . .

وذلك فضلاً عن المعية العامة التي هي معية

---

(١) آية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) ١٥٣ من سورة البقرة .

العلم المحيط الشامل، والإحاطة العامة التامة الكاملة التي تعلم الحقائق والدقائق والرقائق واللطائف والخفيات والخطرات والهمسات وأحاديث النفس ونجوى القلب. . ودبيب النمل. . هذه المعية العامة تكون للكل وتشمل الجميع ملكاً وملكوتاً. . وتعم الكون بما فيه ومن فيه ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾(٣).

وبقول الإمام الراحل محمود شلتوت في تفسيره، إن معية الله لخلقه جاءت في القرآن على أنواع:

جاءت معية الله للملائكه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**إذ يوحي ربك إلى أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب**﴾(٤).

جاءت معيته للمتقين المحسنين الصابرين: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾.

جاءت معيته لموسى فيما يحكيه الله عز وجل عنه:

---

(٣) سوره الملك آيه ١٤.

(٤) آيه ١٢ من سوره الانفال.

﴿قال: كلا، إن معي ربي سيهدين﴾[٥].

جاءت معيته لموسى وهارون: ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[٦].

جاءت معيته للناس جميعاً: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾[٧]. فهذه المعية معية علم وإحاطة بشئون العباد.. يحصيها، وينبئهم بها، ويحاسبهم عليها، ومعيته للمتقين المحسنين معية رحمة وقرب من لطف الله..

أما القرب بالذات فهو محال.. يقول الإمام

---

(٥) آية ٦٢ من سورة الشعراء.

(٦) من آية ٤٦ من سورة طه.

(٧) الآية ٧ من سورة المجادلة والآية ١٠٨ من سورة النساء٧

القشيري[8]: « فأما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه؛ فإنه متقدس عن الحدود، والأقطار، والنهاية والمقدار، وما اتصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق، جلّت حمديته عن قبول الوصل والفصل » . .

فقرب هو في نعته محال: وهو تداني الذوات . .

وقرب هو واجب في نعته: وهو قرب بالعلم والرؤية . .

وقرب هو جائز في وصفه يخصّ به من يشاء من عباده هو قرب الفضل واللطف . .

قرب تجليات « كل على حسب مكانته ودرجته عند الله » .

أما عن كيفية المشاهدة . . والتجليات:

فهي سرّ من الأسرار بين العبد وربه، لا يبوح بها فكيفيتها مجهولة، وستظل هكذا الى الأبد . . لا يحسها إلّا المقربون، ولا يعرفها إلا الواصلون

---

(8) في الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٣٨ .

المتصلون . . لا تُكتب . . ولا تُسطر ولا تُعلم ولا تُعرف إلا باللفظ . .

قال العارفون: « إفشاء سرّ الربوبيّة كفر ».

وقال سهل التستري: للعالِم ثلاثة علوم:

علم ظاهر يبذله . .

وعلم باطن لا يسع إظهاره إلا لأهله.

وعلم هو بينه وبين الله لا يظهره لأحد.

ومعنى الشاهد: الحاضر في القلب. فتكون المشاهدة معناها: الحضور القلبي لا الرؤية البصرية يقول القشيري في رسالة: من حصل له مع مخلوف تعلق بالقلب يقال: إنه شاهده، يعني: أنه حاضر قلبه، فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه عليه. [جـ ١ ص ٢٤٦].

وعلى هذا حُمل قول رسول الله ﷺ: رأيت ربّي ليلة المعراج في أحسن صورة » أي: أحسن صورة رأيتها تلك الليلة لم تشغلني عن رؤيته تعالى. بل رأيت المصوّر في الصورة، والمنشىء في الإنشاء. يريد ﷺ بذلك: رؤية العلم، لا رؤية إدراك البصر.

وألقيت عليك محبة مني

[من سورة طه، آية : ٣٩]

أسمى وأعلى منزلة . . وأكبر درجة وأكمل مقام في الدنيا والآخرة، أن يقول الله لعبده **﴿وألقيت عليك محبة مني﴾** .

إن ذلك القول يجل عن الوصف . . إن محبة القوي الجليل للعبد الضعيف الدليل هي جماع الرحمة وفيض اللطف وجميل العطاء، هي النعمة والمنة والتكريم والفضل **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾**[1] .

الله جميل جليل يُلقى على وجوه أحبائه آيات الجمال وحُلل الجلال . يشع فيهم نور العلم وضياء الإيمان على جبينهم سطور الهداية ودلائل اليقين، ملء

(١) آية ٥٨ من سورة يونس

أهدابهم وهج النور، وملء أفواههم الحكمة والقول الفصل، وحصائد ألسنتهم ترانيم شكر وتراتيل ذكر.. ما وقع نظر الغير عليهم إلا أحبهم وأغرم بهم.. وانقاد لهم، فهم أحباء الله.. أحبهم الله فحببهم الى خلقه وحبب خلقه فيهم.. يقول الإمام الغزالي(٢): «إن محبة الله لعبده هي أن يتولى أمره ظاهره وباطنه، سرّه وجهره، فيكون هو المدبر لأمره، المزين لأخلاقه، المؤنس له بلذة المناجاة في خلواته، الكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه» وقال عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه».

وقال الإمام القشيري(٣): «والمحبة حالة شريفة.. شهد الحق سبحانه وتعالى بها للعبد، وأخبر

---

(٢) إحياء علوم الدين ص ٢٦٢٩.

(٣) في الرسالة القشيرية ج-٢ ص ٦٦١. ط دار الكتب الحديثة تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.

عن محبته للعبد، فالحق سبحانه وتعالى يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه . . محبة الله سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه عليه بالجميل . . محبة الله للعبد هي إحسان مخصوص يلقى الله العبد به، وحاله مخصوصة يرقيه إليها ».

وإذا أحبّ الله عبداً جعله عبداً ربّانياً . . يكفل له العطاء والنصر، ويشمله بالولاية والحماية، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في حديث قدسي رواه عن المولى عز وجل: « من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن استنصرني لأنصرنّه. ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه ».

ومن يحبّه الله يحبه أهل الأرض ومن في السماء، روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إذا أحب الله عز وجل عبداً قال لجبريل: يا جبريل إني أحب

فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: أن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

وفي كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي[٤]، أن الله قال لداود عليه السلام: «يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، ما أحبّني عبد من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حبّاً لا يتقدمه أحد من خلقي.. من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني.. يا أهل الأرض.. هلموا إلى كرامتي.. وائتنسوا بي ؤانسكم.. وأسارع الى محبتكم..».

وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى الى بعض الصديقين: «إن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم.. ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم.. فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك.. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما

---

(٤) ص ٢٦٢١.

يراعى الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس، كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب.. فإذا منهم الليل.. واختلط الظلام.. وفرشت الفرش.. ونصبت الأسّرة.. وخلا كل حبيب بحبيبه.. نصبوا إليّ أقدامهم.. وافترشوا إلى وجوههم.. وناجوني بكلامي، وتملقوا إلي بإنعامي فبين صارخ وباك.. وبين متأوه وشاك.. وبين قائم وقاعد.. وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي. أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم.. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترى - من أقبلت بوجهي عليه - هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ ».

التائبون أحباب الله:

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[٥].

نخطىء في حق الله.. وفي حق أنفسنا..

---

(٥) البقرة آية ٢٢٢.

ونعتدي على حقوق الآخرين. ونقع في الخطيئة ونهوى إلى الـوحـل ونتلطخ بـأدران الإثـم.. ثم يصحـو الضمير.. ويستيقظ..

وتطارد الخطيئة المذنب.. ويتجسم أمام ناظريه شفاعة ما ارتكب وفظاعة ما أجرم وسوء ما عمل عقدة الذنب تتراءى له دوماً وتثقل عليه وتكاد تطحنهابضغوطها النفسية.. فتضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه.. فلا يجد إلا الله يثوب إليه ليتوب عليه ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾(٦). فيجد في التوبة ملاذ الطهر.. ويجد في الأوبة طوق النجاة يوصله الى بر الأمن والهدوء وراحة البال ويتخلص من عقد الذنب التي عاش تحت وطأتها بعد أن دخل إلى الرحاب الإلهي من باب التوبة وباب التوبة الإلهية مفتوح يدخل منه كل من أجرم واعتدى. وظلم وبغى وفي الحديث: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»،

---

(٦) آل عمران: آية ١٣٥.

وقال الله تعالى: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم**﴾[7] إن العليم سبحانه لا يترك عباده يحترقون بنار الندم بل فتح لهم أبواب القبول والغفران لينعموا في رحاب التوبة بالمثوبة والمغفرة، والله أعلم بخلقه.. أعلم بهم من أنفسهم: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[8]. ويعلم أن ضعفهم وبشريتهم تجذبهم دوماً إلى الوحل والشر والخطيئة والإثم.. وأن نوازع الشر في أعماقهم تتغلب أحياناً على منازع الخير.. فدعاهم إلى التوبة: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾[9] ﴿**وإني لغفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى**﴾[10] ﴿**ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾[11] والتوبة رجوع إلى الله.. وما أحلى الرجوع إليه.. وما أحب إليه من الراجعين التائبين إليه.. إنه يفرح بهم قال رسول الله ﷺ:

---

(٧) آية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٨) آية ١٤ من سورة الملك.

(٩) آية ٣١ من سورة النور.

(١٠) آية ٨٢ من سورة طه.

(١١) اية ١١ من سورة الحجرات

« لله أفـرح بتوبـة العبد المؤمن من رجـل نزل في أرض دويّـة مهلكة معـه راحلتـه عليهـا طعـامـه وشـرابـه . . فوضع رأسـه فنام نـومه فـاستيقظ وقد ذهبت راحلتـه، فـطلبها حتى إذا اشتـد عليه الحـر والعطش قـال أرجع إلى مكـاني الذي كنت فيـه فأنـام حتى أموت، فـوضـع رأسه على سـاعده ليمـوت فاستيقظ فـإذا راحلته عنـده عليهـا زاده وشرابـه فقـال من شـدة الفـرح اللهم أنت عبـدي وأنا ربـك، أخطأ من شدة الفرح. فـالله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته ».

وأوحى الله إلى داود عليـه السـلام: لـو يعـلم المـدبرون عني كيف انـتظاري لهم ورفقي بهم وشـوقي إلى تـرك معـاصيهم لمـاتـوا شـوقـاً إليّ، هـذه إرادتي في المـدبـرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين عـليّ، يـا داود: أرحم مـا أكون بعبـدي إذا أدبر عني، وأجـلّ ما يكون عندي إذا رجـع إليّ ».

والتـائبـون أحبـاب الله: ﴿إن الله يحب التـوابـين ويحب المتـطهـرين﴾ وقـال رسـول الله ﷺ: « التـائب حبيب الله » « وإذا أحبّ الله عـبـداً لم يضـره ذنـب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ».

الله جميل . . يحب الجمال

[حديث شريف عن رسول الله ﷺ] (١٢)

يقول الإمام الغزالي :

لله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء . .

كمال التقديس والتنزه لا يكون ولا يتصور إلا للواحد الحق ذي الجلال والإكرام . .

الكمال لله وحده، هو المنفرد بالكمال . . المنزه عن النقص . . المقدس عن العيوب .

والجميل محبوب .

---

(١٢) الحديث بتمامه: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة فقال عليه السلام: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»

والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له.
الفرد الذي لا ضد له..
الصمد الذي لا منازع له.. الغني الذي لا حاجة له.
الذي يحكم ولا راد لحكمه ويقضي ولا معقّب لقضائه.
الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته.
ومنتهى نبوة الأنبياء إقرار بالقصور عن وصفه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

فالمراد بالجمال: الكمال الإلهي؛ له وحده الجمال والكمال، كل أسمائه حسنى وكل صفاته كاملة والكامل - عز وجل - يحب من يسعى إلى الكمال باذلاً قصاراه ليتحلى بالإيمان، ويتجمل بالخُلق ويتزود بالتقوى، ويتزين بالطاعة، ويرتفع بالتواضع.

والله جميل، ومن جميل فعله: عطفه ولطفه؛ إذ يكلف المؤمنين باليسير من العمل ويثيب على اليسير الكثير، ويمهل العاصين، ويحلم على الآثمين: ﴿ولو

يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾[١٣].

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾[١٤].

﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾[١٥].

---

(١٣) آية ٤٥ من سورة فاطر.
(١٤) آية ٦١ من سورة النحل.
(١٥) آية ٥٨ من سورة الكهف

إن الله يحب الـذين يقاتلون في سبيله صفـاً كأنهم بنيان مرصوص

[من سورة الصف : آية٤]

سبيل الله : دينه وعقيدته .

وللعقيـدة أعداء يضمـرون لهـا الشـر ويبيتـون لهـا المؤامرات والمناورات بليل، محاولـين أن يزلـزلوا عقيـدة الله في نفوس معتنقيها، وأن يشككوا المؤمن في إيمانـه، وأن يصرفوا الخلق عن الخالق، وأن يبعدوا الناس عن دين رب الناس ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[١٦] .

وللعقيـدة أنصار. . وللدين حماة ودعاة يجـاهدون البـاطل ويجـابهون أعـداء الله في قوة وشجـاعة وبسـالة وإقـدام، في وحدة واحـدة. . في صفـ واحد لا ينهـزم ولا ينهـدم ولا ينهـار ولا يعـرف الجبـن ولا يعـرف

---

(١٦) آية ١٩ من سورة آل عمران

الفرار . . صف تربطه القوة وتدعمه الشجاعة وتشده البسالة والإقدام .

والشجاعة والبسالة والإقدام كلها فضائل يحمدها الله . والقوة فضيلة يحبها الله ، ورسول الله ﷺ يقول : « المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف » . فالله يحب المؤمن القوي ، ويكره الضعف ، ويمقت الضعيف الذي يهرب من الميدان ، ويخاف المجابهة ويهاب المواجهة واللقاء . . ؟ إذ الضعف والخور والجبن ولين العزم دليل على ضعف الإيمان وعلى وهن اليقين .

فالمؤمن : قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)[17] ، ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً**﴾[18] .

هؤلاء الذين يقاتلون في سبيل نشر دين الله

---

(١٧) آيه ٢٩ من سورة الفتح

(١٨) آيه ٢٢ من سورة الأحزاب

وإعــلاء كلمة الله ، وتــوحيــد الكلمــة عــلى كلمــه التوحيد . .

هؤلاء الــذين يجـابهـون الموت في سبيــل حيـاة العقيدة ونشر الدين . .

هؤلاء الـذين استرخصـوا الـروح وبـاعـوا النفس ليتمكنـوا للعقيـدة في الأرض ويـرسخـوا أصــولهـا في الأفئدة . .

هؤلاء الــذين اعتقـدوا ـ في حق ـ أن الإقــدام لا يقصر الأجل وأن الجبن لا يطيل العمر . .

هؤلاء هم أولياء الله وأنصاره . ودعـاته . . وحملة رسالته بعد أنبيائه . .

هؤلاء المقـاتلون الموحـــدون . هؤلاء يحبهم الله ﴿إن الله يحب الــذين يقـاتلون في سبيله صفـاً كـأنهم بنيان مرصوص﴾ .

إن الله يحب المتقين

[آية ٤ من سورة التوبة]

المتقون الأوفياء أحباب الله، يقول الله: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾[١٩].

والتقوى: هي الحيطة والحذر وتجنب الضرر، وابتعاد المسلم عن كل ما يلحق به المضرة والأذى.

هي طاعة لله، وذكر دائم له، وشكر لآلائه ونعمه ومعطياته..

هي أن يطاع المولى فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يكفر.

هي عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله.

---

(١٩) آية ٧٦ من سورة آل عمران.

والتقوى كلمة جامعة، لها أبعاد، ينبثق منها دلالات ومدلولات.. ويتفرع منها نواحي ومناحي.

وأبعاد التقوى تمتد حتى تغطي جوانب العقيدة والعبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق. تؤخذ هذه الأبعاد من قول المولى سبحانه ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾[٢٠].

فالإيمان بالغيب هو الجانب الذي يتصل بالعقيدة. وإقامه الصلاة: هو الجانب الذي يتصل بالعبادات والتشريع والإنفاق هو الجانب الذي بتصل بالمعاملات والحقوق المالية والالتزامات المادية. ومن ناحية السلوك فإنه يستدل على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما قد فات.. وهذه الجوانب هي صفات المتقين، إذا تجمعت شكلت المؤمن المتقي،

---

(٢٠) آية ٢، ٣، ٤، من سورة البقرة.

وكونت شخصيته، ولوّنت سلوكه وأنتجت ثمارها ونتاجها، وقادته في النهاية إلى محبة الله .

فمن نتاج التقوى: البركة ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٢١] .

والعلم : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[٢٢] .

وصلاح الأهل والذرية : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾[٢٣]

والخروج من كل كرب وسعة الرزق ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[٢٤]

والنجاة في الآخرة من النار: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾[٢٥] .

---

(٢١) آية ٩٦ من سورة الأعراف

(٢٢) آية ٢٨٢ من سورة البقرة

(٢٣) آيه ٩ من سورة النساء

(٢٤) آية ٢ ، ٣ ، من سورة الطلاق

(٢٥) آيه ٧٢ من سورة مريم

والفوز بالدرجات والمنازل العالية: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار﴾[٢٦].

ولهم جنان وحدائق وجنات وأنها: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[٢٧].

ثم لهم في النهاية محبة الله: ﴿والله يحب المتقين﴾ ومعيته لهم ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[٢٨]، ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[٢٩].

---

(٢٦) آيه ٢٠ من سوره الزمر.
(٢٧) آيه ١٥ من سورة آل عمران.
(٢٨) آية ١٢٨ من سورة النحل.
(٢٩) آيه ١٩٤ من سورة البقرة.

والله يحب الصابرين

أهل الصبر هم أهل الله يحبهم الله.

والصبر ثبات، وحبس، ومنع:

حبس النفس عن الجزع، وثبات في مواطن الشدة، ومنع النفس عن الانقياد لرغباتها ورغائبها. وجميع خلال الخير وخصال البر وأصول الطاعة، وما جعل الله في الإنسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق ودواعي الإيمان إنما هي كلها مرتبطة بالصبر وراجعة إلى الصبر.

فالشجاعة: صبر في الحرب على القتال، وبُعد وصبر عن الجبن.

والكرم: صبر على مفارقة المال، وبُعد وصبر عن البخل.

والصدق: صبر على الحقائق وإن كان وراءها ما وراءها.

والعفة : صبر عن شهوة البطن والفرج.
والحلم : صبر على كظم الغيظ.
وكتمان السر : صبر على إخفاء الكلام.
والزهد : صبر وبعد عن فضول العيش

وهكذا نجد أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر.

وغاية الصبر: الله. يقول الله: **﴿ولربك فاصبر﴾**(٣٠) لربك - وحده - لا لغيره يكون صبرك.. لا لكسب ثناء الناس أو لقولهم إن فلاناً صابر، ولا للسمعة، بل يجب أن يكون الصبر خالصاً لله ولوجه الله واستعن بالله ليعينك على الثبات ويقوّيك على الصبر: **﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾**(٣١). فالصبر بالله استعانة، والصبر لله غاية.

ألوان الصبر :

هناك صبر عن المعاصي، بالبعد عنها

---

(٣٠) آية رقم ٧ من سورة المدثر.
(٣١) آية رقم ١٢٧ من سورة النحل.

وصبر على الطاعة بالثبات والدوام على تكاليفها وأعبائها: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾(٣٢)، ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته**﴾(٣٣).

فالصبر صبران: صبر على الشيء، وصبر عن الشيء - بمعنى ابتعد وفرّ - وأشقهما الثاني؛ ذلك أن الصبر على الشيء في الغالب محدود المدة قصيرها، وذلك ريثما ينتهي وقت ذلك الشيء، وأما الصبر عنه، فهو دائم متكرر متجدد كلما سنحت فرصة.

نتائج الصبر:

* الصبر خير: ﴿**ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾(٣٤)

* والبشارة والمدد الإلهي للصابرين: ﴿**وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا**

---

(٣٢) آية رقم من سورة طه.

(٣٣) آية رقم ٦٥ من سورة مريم.

(٣٤) آية رقم ١٢٦ من سورة النحل.

إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[٣٥].

* وجزاء الصابرين قرره القرآن حيث قال: **﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾[٣٦].**

*وجزاء الصابرين محبة الله، فالصابرون أحباب الله يقول الله: **﴿والله يحب الصابرين﴾**[٣٧]. والله يحب المتقين: **﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**[٣٨].

والتقوى والصبر كل منهما مرتبط بالآخر لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوى أعلى المقامات؟ إذ الأتقى هو الأكرم، والأكرم هو الأفضل.

إن التقوى والصبر هما اللذان ارتفعا بيوسف عليه

---

(٣٥) آية رقم ١٥٥ من سورة البقرة ،١٥٦، ١٥٧

(٣٦) آية رقم ١٢ من سورة الإنسان.

(٣٧) آية رقم ١٤٦ من سورة آل عمران

(٣٨) آيه رقم ٩٠ من سورة يوسف.

السلام إلى أعلى المقامات: **﴿قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**(٣٩).

والتقوى معنى جامع لكل خير، والصبر معنى داخل في كل برّ، فإذا أجتمعا لإنسان كان من المحسنين، والله لا يضيع أجر المحسنين، إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم النبي بن النبي بن النبي بن النبي لم يغن عنه كرم أصله ولا عراقته في النبوة، إنما الذي أغناه ونفعه: هما التقوى والصبر. صبره عن الاستجابة إلى إمرأة العزيز، وتقواه؛ إذ سجن وضحى بدنياه من أجل دينه وعقيدته، صبر عن المعصية اختياراً وإيثاراً لما عند الله.

---

(٣٩) آية رقم ٩٠ من سورة يوسف.

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه

إن ذلك الذي يعبّ من الخطايا عبّاً إنما يعيش لوقته، لا يذكر أمسه، ولا يفكر في غده ومستقبله هو ابن الوقت الذي يعيشه ويحياه، لا يحسب حساباً لآخرته، ولا لساعة موته، فهو دوماً ما يعتقد أن الموت بعيد عنه، حتى ولو كان في أشد حالات الوجع والألم، فالأمل يحدوه ويدفعه الى اعتقاده بأن منيته بعيدة، لذلك يماطل ويسوّف ويؤخر الرجوع إلى الله ويؤجل الصلح مع خالقه ومولاه. يقول: ما زال في الأجل بقية وما زلت في مقتبل العمر ومكتمل الشباب كلي قوة وفتوة، فلأستمتع بأيامي.

وفجأة يجد نفسه قد انتقل من عالم إلى آخر ومن أجواء إلى أجواء يجد نفسه بين يدي خالقه خالي الوفاض صفر اليدين يقلب كفيه حسرة وندماً على

حياة أنفقها فيما لا خير فيه **﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**[1].

والمؤمن الحق يجد ويكد ويعمل لدنياه وأخراه، ويزرع هنا ما يجنيه هناك، مقدم لعاقبته صالح العمل وعمل الصالح فهو مؤمن آمن لا يكره الموت وإنما ينتظر وقوعه بغتة في أية لحظة . .

قال رجل من الأنصار لرسول الله ﷺ : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟

فقال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة».

حقّاً . . إن الأحياء الذين ينتظرون الموت هم موتى في طريقهم إلى الحياة . . عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: كيف أصبحت يا معاذ؟ قال: أصبحت

---

(١) آية ٨ من سورة الجمعة.

مؤمناً حقّاً. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن لكل قول مصداقاً، فما مصداق ما تقول؟ قال: يا نبي الله، ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت الا أمسي، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت ألا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت ألا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار، وثواب أهل الجنة. قال ﷺ: عرفتَ فالزم.

وروى أنس بن مالك قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقّاً. قال: أنظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة. فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون وإلى أهل النار في النار يتعاودون. فقال عليه الصلاة والسلام: «أبصرت فالزم، عبد نوّر الله قلبه».

وقال ابن عطاء الله في حكمه: لو أشرق لك نور

اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل اليها. . ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كِسْفة الفناء عليها. . نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فيحق به الحق ويبطل له الباطل، والآخرة حق والدنيا باطل.

فإذا أشرق نور اليقين في قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرحل إليها. . فحق بذلك حقها عنده

وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها، وأسرع إليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن. .

فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافي عن زهرتها والإقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها. ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبي ﷺ: « إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح. قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار

الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فأكب القوم يبكون. . !! قال: : ما يبكيكم؟ قالوا: كلنا نكره الموت. قال: ليس ذلك ـ ولكنه إذا حضر فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم، فإذا بُشّر بذلك أحب لقاء الله، والله للقائه أحب، وأما إن كان من المكذبين فنزل من حميم وتصلية جحيم فإذا بُشّر بذلك كره لقاء الله. والله للقائه أكره ». (٢).

قال الإمام الغزالي في الإحياء(٣) إن التائب يكثر من ذكر الموت، لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيبقى بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد. وهو معذور في كراهة الموت. ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »، فإن هذا

---

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) المجلد الخامس عشر ص ٢٨٣٨.

.بين يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله
لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب
مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه. فلا يعد
كارهاً للقائه

الودود

﴿إن ربي رحيم ودود﴾[آية ٩٠ من سورة هود]

﴿وهو الغفور الودود﴾ [من آية ١٤ من سورة البروج]

الودود: اسم من أسماء الله الحسنى.

والود: الحب، ومعنى الودود. المحب للمؤمنين الذي يودهم ويودونه ويحبهم ويحبونه، والراضي عن عباده المؤمنين المتحبب إلى أوليائه بمعرفته، وإلى المذنبين بعفوه ورحمته، وإلى العوام برزقه وكفايته.

وفي تفسير هذا الإسم الإلهي يقول صاحب كتاب «الأنوار القدسية في شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية»[1]: «الودود هو الذي يحب الخير والإحسان لعباده ويواليهم بأيادي الإنعام ابتداءًا وختماً، والودود

---

(١) تأليف أحمد سعد العقاد، وتحقيق محمد سليمان فرج وتقديم الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود.

أنواره خاصة بأهل السعادة الأزلية، فإن الود هو المحبة ومحبته تعالى أزلية سابقة، قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً﴾**[٢].

ومن علامات المودة لله أن تحب من يحبهم الله من الأنبياء والأولياء والعلماء، وتحب محاب الله ومراضيه من أعمال البر والتقوى وفعل الخيرات وحسن المعاملات.

وقد ذُكر الودود سبحانه مرتين في القرآن الكريم في سورة هود، حيث يقول الله تبارك وتعالى **﴿فاستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إن ربي رحيم ودود﴾**[٣] وفي سورة البروج حيث قال سبحانه **﴿وهو الغفور الودود﴾**[٤].

ويقول الدكتور حسن عز الدين الجمل في كتابه (أسماء الله الحسنى): الودود، من الود وهو الحب،

---

(٢) من سورة مريم آية ٩٦.
(٣) آية رقم ٩٠ من سورة هود.
(٤) آية ١٤ من سورة البروج.

وسبحان المحب للمؤمنين وهو المحبوب لهم وبحبة الله لعباده رحمته إياهم، ومحبة المؤمنين لله طاعتهم له. وطاعة الله رحمة من الله.

والله نور السموات والأرض، فمن أصابه من ذلك النور فقد سبق له من الله الهدى.

وقيل في معنى الودود: أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لما عرفوا من كماله في ذاته وصفاته وغفرانه تعالى وكلتا الصفتين مدح، لأنه جلّ ذكره إذا أحب عباده المطيعين فهو فضل منه، وإذا أحبّه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه

أما الإمام المفسر فخر الدين الرازي فإنه في كتابه «لوامع البينات في شرح أسماء الله الحسنى والصفات» بعد أن شرح اسم الله الودود قال في الصفحات الأولى من كتابه هذا إن الناس اختلفوا حول تحديد اسم الله الأعظم، فقال بعضهم إن الاسم الأعظم لله ليس اسماً معيناً معلوماً، بل كل اسم يذكر العبد به ربه حال ما يكون مستغرقاً في معرفة الله تعالى فينقطع الفكر والعقل عن كل ما سواه فذلك الإسم هو الاسم الأعظم.

ثم ساق الإمام الرازي أدلة وبراهين أصحاب هذا الرأي .

كما أورد الإمام الرازي بعد ذلك حجج من قال أن اسم الله الأعظم هو (الله) وأورد من الحجج في هذا المجال إحدي عشرة حجة .

وبعد أن أورد الإمام الرازي عدة آراء أخرى حول اسم الله الأعظم خلص في النهاية إلى ترجيح الرأي الأول فقال : إن الله سبحانه يعرف ذاته معرفة حقيقية ذاتية ، لا عرضية ، فإذا نوّر الله قلب بعض عبيده بتلك المعرفة لم يبعد أيضاً أن يطلعه على اسم تلك الحقيقة المخصوصة ، وعلى هذا التقدير ، يكون ذلك الإسم أخص الأسماء وأشرفها وأعلاها وهو الاسم الأعظم الذي لا يبعد أن ينطاع به كل ما في السموات وما في الأرض .

والإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود له رأي في هذا المجال يقترب من هذا الرأي الذي ساقه الإمام الرازي وارتضاه ، فهو يقول : [٥]

---

(٥) في تقديمه لكتاب (الأنوار القدسية ، في شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية)

« وهـذه الأسـماء ـ أي أسـماء الله الحسنى ـ بحـور أنـوار، ومواطن أسـرار يغترف منهـا كـل مسلم بحسب صلتـه بـالله سبحـانـه، وتفكـره في عـظمتـه، وتحققـه بعبوديته، ويعرف منها كـل مؤمن بحسب ما هيـأ الله له من وسـائـل المعـرفـة وبسط لـه من ألـوان القـرب والتوفيق ».

لقاء.. حول الحب

وكان هناك لقاء حول الحب، بين أستاذ وتلميذه؛ أستاذ عارف عالم مراد، وتلميذ فقيه محب مريد..

بادىء ذي بدء كانت خصومة، أو بالأحرى، كانت الخصومة من جانب التلميذ وحده.. وكان منه أنكار.. واعتراض.. كل ذلك كان من قبل التلميذ قبل أن تتوثق صلة بأستاذه، وقبل أن تنقلب عداوته لأستاذه إلى محبة.. ومحبة جارفة عارمة..

كان ذلك بادىء ذي بدء.. ثم كان لقاء بينهما ظللته المحبة، واعترف التلميذ لأستاذه بالحب وأقرّ الأستاذ المحبوب لمحبه ومريده بالود.

كان التلميذ هو «ابن عطاء الله السكندري» وكان الأستاذ هو (أبو العباس المرسى) ويقص ابن عطاء الله السكندري في كتابه (لطائف المنن) قصة

صلته هذه بأبي العباس المرسى، وموقفه منه ثم محبته له، فيقول[1]:

كنت لأمره - أي لأمر الشيخ أبي العباس المرسى - من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه، فقلت فيهم قولاً عظيماً.. ثم قلت في نفسي: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له إمارات.. لا يخفى شأنه.. فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به وقربهم منه فقال:

الأول: إسلام، وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة.

وثانيها: الإيمان، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

---

(١) ص ٨ من كتاب لطائف المن ستاليف ابن عطاء الله السكندرى وتحقيق الإمام المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود.

وثالثها: الإحسان، وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب.

وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني، عبوديه، والثالث عبودة.

وأن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقه، والثالث تحقق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت.. وإن شئت قلت إلى أن بهر عقلي وسلب لبي، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر ألهي ومدد رباني: فأذهَبَ الله ما كان عندي.

ثم أتيت تلك الليلة إلى منزلي فلم أجد فيّ شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل، كعادتي!! ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو!!.

فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت اليه قام قائماً وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت

خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك.

فكان أول ما قلت له: أيا سيدي، إني والله أحبّك.

فقال: أحبّك الله كما أحببتني.

ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها، النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.

فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت في البلية فمقتضى الحق منك الصبر.

وإن كنت بالطاعة، فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

وعند ئذ قمت من عنده، وكأنما كانت الهموم ثوباً نزعته،

ثم سألني بعد ذلك بمدة: كيف حالك!

فقلت: أفتش عن الهم فلا أجده، فقال:

لــيــلي بــوجــهــك مــشــرق
وظــلامــه في الــنــاس ســاري
والــنــاس في ســدف[2] الــظلام
ونــحــن في ضــوء الــنــهــار

إلــزم ، فــوالله لئن لــزمت لتكــونـن مفــتيــاً في المذهبين، في علوم الظاهر وحقائق الباطن.

---

(٢) السدف الظلمه

غداً.. نلقى الأحبة

جثم الظلام على مدينة « عمواس » ببلاد الشام.. فاتجه بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ إلى فراشه وأطبق جفنيه، فطوق سلطان الكرى بذراعيه، فراح في سبات عميق..

ونام الكون، وهدأ كل شيء.. وظل بلال يغط في نومه، ثم تململ في رقدته وانبسطت أسارير وجهه وولدت على شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن الغبطة؟ فقد رأى في منامه النبّي الحبيب عليه الصلاة والسلام مقبلا نحوه وعليه ثياب بيض، فأسرع إليه، وسلم عليه، ووقف معه والغبطة تشيع في نفسه، والسرور يداعب قلبه، وتحركت شفتا النبي ﷺ، فأرهف بلال سمعه، فقال النبي ﷺ معاتباً: « ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورنا؟ » فهبّ بلال من نومه

وصدى كلمات النبي ﷺ يرن في أذنيه: ما هذه الجفوة يا بلال؟ ما هذه الجفوة يا بلال؟، فاجتاحته موجة من الأسى ووقع في نفسه حزن ثقيل، وغمغم: جفوة؟ لا يا رسول الله.. انقضت سنون ولم أزر قبرك، ولكنها ليست بجفوة، فما غاب رسمك عن عيني، وما نسيتك لحظة، أو ونت شفتاي عن ترديد اسمك، أو قصر لساني في الصلاة عليك. لا يا رسول الله إنها ليست بجفوة، سأشد الرحال من فوري، وسأنطلق إلى يثرب مدينتك المفضلة لزيارة قبرك.

وابتدأ مولد النهار.. وبان في الأفق البعيد بصيص من نور، فخرج بلال مسرعاً واتجه إلى راحلته وامتطاها وزجرها فهمت لتندفع صوب مدينة الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليمات..

وبان له قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فازداد وجيب قلبه وازداد اضطراب نفسه، وازداد حنينه.. وجدّت راحلته في السير حتى بلغت باب القبر، فأناخها ونزل عنها، وتقدم في خشوع، ثم دلف من الباب، ولما أصبح أمام القبر اضطرب،

وهتف بصوت تخنقه العبرات: السلام عليك يا رسول الله.

وأحسّ غصة في حلقه، وترقرق الدمع في عينيه، ثم سال على خديه وأطرق صامتا، وراحت روحه تهيم في سماء الذكريات، فتذكر النبي ﷺ ومشاركته له في السراء والضراء في العسر واليسر، في الإقامة والظعن، في الحرب والسلم، فاطمأنت نفسه، وخمدت نار شوقه، وشعر بهدوء وارتياح وتصرم الوقت وما أحس بلال انقضاءه، فقد كانت روحه متصلة بروح النبي الحبيب عليه أفضل الصلاة والتسليم واستمر في إطراقه، وابتدأ الليل ينشر أجنحته على الكون وبلال في مكانه لا يحس شيئاً مما حوله، ثم سمع صوتاً يهتف: بلال.. بلال.

فأفاق من غمرته، ورفع رأسه، والتفت نحو مصدر الصوت، فرأى الحسن والحسين، فتجددت أشجانه، وترقرق الدمع في عينيه، وأسرع إليهما وراح يضمهما الى صدره ويقبلهما ويغمغم: كلما رأيتكما ذكرت بكما رسول الله ﷺ.

ومكث بلال بيثرب ما شاء الله له أن يمكث..

ثم شاء العودة إلى الشام . .

واستأنف بلال حياته في الشام وفي يوم من الأيام أحس ضعفاً واعتلالاً ، فلزم داره . . وازداد الضعف على الأيام . . وازدادت وطأة المرض عليه . . فأصبح صدره يعلو وينخفض . . وجلست زوجته بجواره تمرضه فألفته يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وفتح عينيه ، فسألته :

ـ كيف تجدك؟

فغمغم :

ـ دنا الفراق .

ـ ونظر أمامه ، فخيل إليه أنه يلمح أشباحاً ، ثم تجسدت الأشباح فصارت أناساً يعرفهم ويعرفونه يحبهم ويحبونه . . وقفوا عند فراشه ينتظرونه ، فهذا محمد ﷺ . . وهذا أبو بكر وهؤلاء أصحابها الراحلون يدعونه ليلحقوا بهم . فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ما لبثت أن إختفت . . ثم زفر زفرة شديدة ، وأسبل عينيه ، وألقى رأسه على صدره ، فصكّت زوجه وجهها وأهّت آهة ، وهتفت : واحزناه ! !

فغالب بلال ضعفه، وفتح عينيه، وغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة:

- بل وافرحتاه.. غداً نلقى الأحبة: محمداً وصحبه[1].

(١) بتصرف من كتاب «بلال مؤذن الرسول» تأليف: عبد الحميد جودة السحار

حكايات . . عنهم

هي حكايات حكتها الأيام . . ولونتها الأحداث بما يشبه الأساطير عن هؤلاء الذين وصل بهم الوله والولع والفناء في المحبوب والتفاني في الحب إلى درجة لو وضعناها تحت مجهر العقل لأنكرها العقل . . وردّها . . وتردد في قبولها، لأنها - في رأيه - تخرج عن عقال العقل إلى نطاق اللامعقول: نطاق الجنون . . جنون الحب ومجانين العشق .

وغاب عن العقل وأصحابه العقلانيين أن الحب صانع الغرائب والعجائب والمعجزات، ولا دخل للعقل في الحكم على الخوارق، والكرامات، بله المعجزات .

ومهما كان الأمر بالنسبة للحكم على هذه الأقاصيص والحكايات وعلى أصحابها، فالإجماع منعقد

على أنها ثروة من تراثنا التاريخي . . والإيماني . . لا مجال لإنكارها أو إنكار حوادثها وأحداثها أو الطعن في شخوصها بل ولا مجال لتغيير بنائها أو التعديل في وقائعها ـ أو حتى تغيير أسلوبها لأن التاريخ شاهدها وشهد لها وسجّل . . وحافظ . .

وسنعرض هنا لوناً من هذه الألوان القصصية التي خلع العقل عليها صفة « الجنون » ووصف أصحابها بأنهم مجانين الحب . . وكل قصارانا في عرضها أننا سننفض عنها غبار التاريخ والقِدم ، وسنعرضها بثوبها العتيق الذي زُفّت به إلينا . . يفوح منه عبق التاريخ ورائحة الماضي العتيق ، وسنعرضها محافظين على النص كما ورد إلينا وعلى الأسلوب كما جاء لنا . . اللهم إلا من مقولة نقول فيها للعقل : ترّفق . . وتمهل . . بل وتقبل هاتيك الأقاصيص فإنها قصص للواصلين الملهمين التائهين الهائمين الذين كسروا القيود ، واجتازوا الحدود ، مضحين بكل شيء عازفين عن كل شيء ، عازمين على شيء واحد هو أن يصلوا . . فوصلوا . . والواصلون قليل ماهم ، والقليل ـ عادة ـ خارج عن دائرة الحكم العقلي ولو

حكّم العقلُ عقله ورجع إلى القصص الخمسمائة التي حكاها كتاب « روض الرياحين في حكايات الصالحين[1] » لسرجع عن حكمه، وطامن من هامته ولأقر لذوي الفضل والصلاح والولاية والهداية، والوصل والقرب من شخوص هذه القصص بما سجّل لهم التاريخ من حكايات تشده وتدهش تنم عن صلاحهم وإصلاحهم.. ووصولهم.. ووصالهم.. وقربهم من الباب والأعتاب والرحاب والأحباب..

يقول سريّ السقطي[2] سهرت ليلة من الليالي.. وقلقت قلقاً شديداً. فلم أُطق الغمض مع ما حرمته من التهجد.. فلما صليت صلاة الصبح خرجت لا يقر لي قرار، فوقفت في الجامع أستمع بعض القُصّاص؛ لعلي أجد لقلبي راحة، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة!!

---

(١) هو كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين الملقب بـ« نزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر في حكايات الصالحين والأولياء والأكابر » تأليف الإمام أبو محمد بن أسعد اليافعي. وأودع المؤلف كتابه خمسمائة حكاية وخمسة فصول في كرامات الصالحين وارد على بعض الفقهاء الذين أنكروا بعض هذه الأقاصيص.

(٢) ص ١٠٦ من المرجع السابق.

فمضيت ووقفت ببعض الوعّاظ وجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة!!

فقلت أمضي إلى بعض أطباء القلوب ومن يُدل المحبّ على المحبوب، فمضيت فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة!!.

فقلت أمضي إلى أهل الشرطة أعتبر بمن يعاقب في الدنيا، فمضيت، فوجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة!!

فقلت أمضي إلى.. المارستان[3] لعلي أتروع وأنزجر بمن ابتلى، فلما ولجت المارستان وجدت قلبي قد انفسح، وصدري قد انشرح، وإذا أنا بجارية من أنضر الناس وجها، عليها أطمار أطمار[4] حسنة رفيعة، وشممت منها رائحة عطرية عفيفة المنظر، وسيمة الخطر[5]، وهي مقيدة الرجلين، مغلولة اليدين.. فلما رأتني تغرغرت عيناها بالدموع، وأنشأت تقول:

---

(٣) دار مرضى العقول.

(٤) أي. أثواب.

(٥) الخطر من معانيه: الشرف، والقدر.

أعيذك أن تغل يدي
بغير جريمة سبقت
تغل يدي إلى عنقي
وما خانت وما سرقت
وبين جوانحي كبد
أحسّ بها قد احترقت
وحقك يا مني قلبي
يميناً برة صدقت
فلو قطعتها قطعاً
وحقك، عنك ما رجعت.

قال السرّى - رضي الله عنه - فلما سمعت كلامها قلت لصاحب المارستان: ما هذه؟ قال: مملوكة اختل عقلها، فحبسها مولاها، لعلها تنصلح..

فلما تمّ كلام القيّم (صاحب المارستان) اغرورقت عيناها بالدموع، ثم جعلت تقول:

معشر الناس، ما جُننتُ ولكن
أنا سكرانة وقلبي صاحي

أغـللتـم يـدي ولم آت ذنـبـا
غـير جهـدي في حبـه وافتضـاحـي
أنـا مـفـتـونـة بـحـب حـبـيـب
لست أبغي عن بـابـه من بـراحـي
فصـلاحي الـذي زعـمتـم فسـادى
وفسـادى الـذي زعمـتم صـلاحـي
مـا عـلى مـن أحـب مـولى المـوالي
وارتـضـاه لـنـفـسـه مـن جـنـاح

قـال السرى: فسمعت كـلامـاً أقلقني وأشجـاني، وأحرقني وأبكاني، فلما رأت دمـوعي قالت: يـا سرى، هـذا بكـاؤك عـلى صفته، فكيف لـو عـرفتـه حق معرفته . . ؟

ثم أغمي عليها ساعة، فلما أفاقت قالت:

ألبستني ثـوب وصـل طـاب ملبسـه
فـأنت مـولى السورى حقـاً ومـولائي
كـانـت بـقـلبـي أهـواء مـفـرقـة
فـاستجمعت،مـذ رأتك العـين،أهوائي
مـن غص داوى بشـرب المـاء غـصتـه
فكيف يصنـع من قـد غُصّ بـالمـاء؟!

قلبي حـزين عـلى مـا فـات من زلـلي
والنفس في جسـدي من أعـظم الـداء
والشـوق في خـاطـري مني وفي كبـدي
والحـب مني مـصـون في سـويـدائي
إليـك مني قصـدت البـاب معتـذراً
وأنـت تعـلم مـا ضـمتـه أحشـائـي

فقلت لها: يا جارية.

قالت: لبيك يا سرى

قلت: من أين عرفتيني؟

قـالت: مـا جهلت مـذ عـرفت، ولا فتـرت مـذ خـدمت، ولا انقطعت مـذ وصلت، وأهل الـدرجـات يعرف بعضهم بعضاً.

قلت: أسمعك تذكرين المحبة، فمن تحبين؟

قـالت: لمن تعـرف إلينـا بنعمـائـه، وجـاء علينـا بجزيل عـطائه، فهـو قريب إلى القلوب، مجيب لـطلب المحبـوب، سميـع، بـديـع، عليم حكيم، جـواد، كريم، غفور، رحيم.

فقلت لها: من حبسك ها هنا؟

قالت: حاسدون تعاونوا، وتعاقدوا، وتراسلوا.

ثم شهقت شهقة حتى ظننت أنها فارقت الحياة، ثم أفاقت وأنشدت تقول:

قلبي أراه إلى الأحباب مرتاحاً
سكران من راح حب، بالهوى باحا
يا عين جودي بدمع خوف هجرهم
فربّ دمع أتى للخير مفتاحاً
ورب عين رآها الله باكية
بالخوف منا تنال الروح والراحا
لله عبد جنى ذنبا فأحزنه
فبات يبكي ويذري الدمع سفاحا
مستوحش خائف مستيقن فطن
كان في قلبه للنور مصباحا

فقلت: لقيّم المارستان: أطلقها. ففعل.

فقلت: اذهبي حيث شئت.

قالت: يا سري، إلى أين أذهب، وما لي عنه مذهب، إن حبيب قلبي قد سلكني لبعض مماليكه!!

فإن رضى مالك ذهبت، وألا صبرت واحتسبت.

قلت: هذه والله أعقل مني.

وبينما هي تخاطبني إذ دخل مولاها، فقال للقيّم: أين تُحفة؟

قال: هي في الداخل، وعندها سرى السقطى رضي الله عنه. ففرح، ودخل، وسلم علي ورحب بي، وعظّمني..

فقلت له: هي أولى بالتعظيم مني، فما الذي تكره منها؟

قال: أمور كثيرة؟ فهي لا تأكل، ولا تشرب، ذاهلة العقل، مدهوشة اللب، ولا تنام ولا تدعنا ننام!! كثيرة المكرة سريعة القبرة، ذات زفرة، وحنين، وبكاء وأنين، وهي بضاعتي إشتريتها بكل مالي بعشرين ألف درهم، وأمّلت أن أربح فيها مثل ثمنها؛ لحسن صنعتها.

قلت: وما صنعتها؟.

قال: مطربة.

ومذ كم كان بها هذا الداء؟

قال: منذ سنه.

قلت: وما كان بدؤه؟

قال: بينا العود في حجرها وهي تغني وتقول:

وحقك لا نقضت الدهر عهدا
ولا كدّرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجدا
فكيف ألذ أو أسلو أو أهدا
فيا من ليس لي مولى سواه
نراك تركتني في الناس عبدا

ثم كسرت العود.. وقامت، وبكت.. وانتحبت، فاتهمتها بمحبة إنسان!! فكشفت عن ذلك فلم أجد له أثرا، فقلت لها: أهكذا كان الحديث؟

فأجابتني بلسان طلق، وقلب محترق، وهي تقول:

خاطبني الحق من جناني
فكان وعظي على لساني
قربني منه بعد بعد
وخصني الله واصطفاني

أجبت لما دعيت طوعاً
ملبيا للذي دعاني
وخفت مما جنيت قِدْماً
فأوقع الحب بالأماني

قال السري، رضي الله عنه، فقلت: على الثمن. وأزيدك. فصاح وقال: وافقراه، من أين لك ثمن هذه الجارية وأنت رجل فقير؟!

فقلت له: لا تعجل علي، تكون في المارستان حتى آتي بثمنها..

ثم ذهبت باكي العين، حزين القلب، ووالله ما عندي من ثمنها درهم. وبقيت طوال الليل أتضرع وأدعو الله عز وجل.. فلم أطعم غمضا وأقول يا رب، إنك تعلم سري وجهري وقد عوّلت على فضلك فلا تفضحني عند مالكها.

وبينما أنا في المحراب، وإذا بقارع يقرع الباب، فقلت: من بالباب؟

قال: حبيب من الأحباب، جاء في سبب من الأسباب، بأمر الملك الوهاب. ففتحت الباب، وإذا برجل معه أربعة غلمان وشمعة، فقال:

يا أستاذ أتأذن لي في الدخول؟

فقلت: أدخل، فدخل، فقلت له: من أنت؟

قال أنا أحمد بن المثنى، قد أعطاني من إذا أعطى لا يبخل بالعطاء، كنت الليلة نائم.. فهتف بي هاتف يقول أحمل خمس بدرات[٦] إلى السريّ تطيب بها نفسه، ويشتري بها «تحفة» فإن لنا بها عناية فسجدت لله شكرا على ما أولاني من نعمة.. وجلست أتوقع الفجر.. فلما صليت الصبح خرجت، وأخذت بيد أحمد، ومضيت به إلى المارستان، فإذا الموكل بها يلتفت يميناً وشمالاً فلما رآني قال: مرحباً، ادخل فإن لها عند الله عناية، هتف بي البارحة هاتف، وهو يقول:

إنها منا ببال
ليس تخلو من نوال
قربت ثم ترفت
وعلت في كل حال

---

(٦) البدرة من المال الكمية العظيمة منه، وكذلك يقال للكيس الموضوعة فيه: بدرة.

قال السري - رضي الله عنه - فلما رأتنا تحفة تغرغرت عيناها بالدموع - وقالت: شهرتني بين المخلوقين.. ثم أنشأت تقول:

قد تصبرت إلى أن
يميل في حبك صبري
ضاق من قيدي وغُلّي
وامتهاني فيك، صدري
ليس يخفى عليك أمري
يا منى سؤلي وذُخري

قال، السرى: فبينما نحن جلوس إذ دخل مولاها، وهو باكي العين، حزين القلب، متغير اللون، فقلت له: لا تبك. فقد جئناك بما وزنت وربح خمسة آلاف.

فقال: لا والله.

فقلت: ربح عشرة آلاف. فقال: لا والله!! فقلت: وربح المثل.

فقال: لو أعطيتني الدنيا ما قبلت، هي حرة لوجه الله تعالى.

فقلت لـه: ما القصـة؟ فقـال: يـا أستـاذ وُبخّت البارحة، أشهدك أني قد خـرجت من جميع مـالي هاربـاً إلى الله تعـالى، اللهم كن لي في السعة كفيـلاً وبالـرزق جميلاً.

فـالتفت إليّ ابن المثنى، فرأيتـه يبكي، فقلت لـه: ما يبكيك؟

ففـــال: كـأن الحق مـــا رضيني لمـا نـــدبني إليـه، أشهدك أني قد تصدقت بجميع مالي لوجه الله.

فقلت: ما أعظم بركة «تحفة» على الجميع.

فقـامت تحفـة فنـزعت مـا كـــان عليهـا، ولبست «مدرعة»[7] من شعر وخرجت وهي تبكي فقلنا لها:

ـ قد أطلقك الله تعالى، فما يبكيك؟

فأنشأت تقول:

هـــربــت مـنــه إلـــيــه
بــكــيــت مــنــه عــلــيــه

---

(٧) المدرعة: الجبة المتقوفة. ودرع المرأة قميصها، أو ثوب تلبسه في بيتها.

وحقه هو مولى
لا زلت بين يديه
حتى أنال حظي وأحظى
بما رجوت لديه

قال: ثم خرجنا من الباب.. فلما سرنا في بعض الطريق طلبناها فلم نجدها. ومات ابن المثنى في الطريق ودخلت أنا ومولاها «مكة» فبينما نحن في الطواف إذ سمعت كلام مجروح من كبد مقروح وهو يقول:

محب الله في الدنيا سقيم
تطاول سقمه فدواه داه
سقاه من محبته بكأس
فأرواه المهيمن إذ سقاه
فهام بحبه وسما إليه
فليس يريد محبوباً سواه
كذاك من ادّعى شوقاً إليه
يهيم بحبه حتى يراه

فتقدمت إليها، فلما رأتني قالت، يا سرى. قلت: لبيك، من أنت يرحمك الله؟

قالت: لا إله إلا الله.. وقع التناكر بعد المعرفة!! أنا «تحفة». فإذا هي كالخيال..

فقلت: يا تحفة ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟.

قالت: آنسني بقربه، وأوحشني من غيره.

فقلت لها: مات ابن المثنى.

فقالت: رحمه الله، لقد أعطاه مولاي من الكرامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهو بجواري في الجنة.

فقلت: جاء معي مولاك الذي أعتقك فدعت بدعاء خفيّ، فلم يكن أسرع ما عاينتها تلقاء الكعبة ميتة..

فلما نظرها سيدها لم يتمالك أن سقط على وجه، فحركته، فإذا هو قضى نحبه، فأخذت في جهازهما، ودفنهما، رحمة الله عليهما.

ألوان .. من الحب

وكما أن هناك حبّاً لله فمن ألوان المحبة كذلك حب في الله .. كحب شخص لشخص .. لا لمنفعة دنيوية، ولا لغرض ولا لعرض زائل ولكن محبة في الله سداها الإخلاص ولُحمتها النقاء والوفاء هدفهما خير العمل وعمل الخير .. أخوة في الله وفي الدين « من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه » [حديث شريف روته السيدة عائشة].

وقال رسول الله ﷺ: « ما تحاب إثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبّاً لصاحبه » وفي حديث قدسي رواه رسول الله ﷺ عن ربه قال: « إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي .. وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي وحقت محبتي للذين يتناحرون من أجلي».

ونتيجة هذا الحب أمن وأمان وسلام وسعادة في

الدنيا ونجاة وفوز في الآخرة يقول رسول الله ﷺ: « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بحب المساجد ورجلان تحابّا في الله أجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته إمرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء قال: رجل: فمن هم؟ وما أعمالهم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها بينهم، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » [رواه الترمذي]

ولقد ظهرت هذه المحبة الخالصة ظهوراً واضحاً في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، عندما آخى رسول الله ﷺ عقب الهجرة بين المهاجرين

والأنصار، فقال سعد بن الربيع الأنصاري لأخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف: هذا مالي، ونخلي، أقسمه بيني وبينك نصفين، وهذه داري بيني وبينك، فقال لعبد الرحمن: بارك الله لك في مالك، دلّني على سوق المدينة، فدلّه عليه.. فتاجر حتى أثرى.

وقد مدح الله تبارك وتعالى الأنصار، وسجل لهم هذه الأخوة العالية الغالية بقوله: ﴿**والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم. ولو كان بهم خصاصة**﴾ [من سورة الحشر].

وما انتصر أهل بدر على قلتهم وكثرة عدوهم إلا بهذه الأخوة الإسلامية، وبهذه المحبة الخالصة.

وقد سئل بعض الكافرين عن سر إنتصار المسلمين عليهم مع قلة عتاد المسلمين وعددهم فقال: « إن كل فرد من المسلمين يجب أن يقتل قبل أخيه فداء له، مسارعة إلى الشهادة في سبيل الله.

أما غيرهم فكل فرد يحب أن يُقتل أخوه قبله ليستأثر بالغنيمة من بعده.

وحكى « حذيفة العدوى » قال: انطلقت يوم

اليرموك لطلب ابن عم لي وكان معي شيء من الماء وأنا أقول لنفسي: إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه.. فإذا أنابه، فقلت: أأسقيك؟ وأشار إليّ أن: نعم فإذا رجل بجواره يتأوّه ويقول: آه آه. فقال ابن عمي: انطلق إليه بالماء فجئت إليه فإذا هو «هشام بن العاص»: أأسقيك؟ فسمع هشام آخر يتأوه.. فقال لي: انطلق به إليه.. فجئت إليه فإذا هو قد مات. ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضاً قد مات ثم رجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد لحق بهما.

والحب في الله يوجب المحبة من الله لقوله ﷺ حاكياً عن الله: «وجبت محبتي للمتاحبين فيّ» قال الإمام النووي: حديث صحيح رواه مالك في الموطأ.

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول حقّت محبتي للذين ينزاورون من أجلي، وحقّت محبتي للذين يتحابون من أجلي..».

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلفه: طبت، وطاب ممشاك، وطابت لك الجنة».

تعالوا . . نعلمكم الحب

الـدين علمنا الحب . . وأضـاء لنـا طـريق المحبـة والــود، وبـين لنــا من نحب؟ وكيف نحب؟ وللحب طرق ووسائل . . طرق يسير فيها أهل الهوى لتـوصلهـم وتأخذ بأيديهم إلى البـاب . . والرحـاب واللقاء وطـريق الحب، غـالباً، بـل دائماً مـا يكون شـاقاً كله شـوق . . وشـوك . . وضني وجهد وأمـل ورجـاء ووصـل وجفـاء والمريد المحب يكابد ويجاهد في طـريق المحبـة . . إلى أن يصل إلى المراد المحبوب . . إلى الحب هواه ومبتغـاه والحب لا يقبــل الشريــك، كـما أن الحب لا يقبـــل الشـــركـة ولا بــد فيـه من الإخــلاص . . الإخـلاص للمحبـوب وحده يكـون الحب لـه وجـده، لا لغيـره، يخلص له الحب كله والود كله فيكون الله محبوب قلبـه ومعبـود قلبه ومقصـود قلبه فحسب يقـول المولى: في

حديث قدسي رواه رسول الله ﷺ : « إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري فيها »، ويقول المولى في كتابه العزيز: ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**﴾[1] فما هو إلا قلب واحد يتجه به صاحبه إلى حبيب واحد. . يسلمه له. . وهكذا حال من يحب مولاه. . يسلم وجهه وأمره وقلبه وكيانه كله لله، إن تكلم فبالله وأن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فهو مع الله، فهو بالله، ولله، ومع الله.

يقول الإمام الجنيد، عن العبد المحب وعن حبه الإلهي « عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفّى شرابه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله ﴾إن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله، فهو بالله، ولله، ومع الله ».

---

(١) آية رقم ٤ من سورة الأحزاب.

وقال الإمام الغزالي[٢] وكمال الحب أن يحب الله عز وجل بكل قلبه، وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، وبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله، وإلى هذا التغريد والتجريد الإشارة بقول الله سبحانه: ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾[٣].

ولحب الإله حدود وحقوق.. يقول أبو يزيد البسطامي «كاذب من ادعى محبته ولم يحفظ حدود» وأول هذه الحدود هي العمل لله بتعاليم الله.. أداء الفرائض واجتناب النواهي «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه».

في حديثه عن الحب في كتاب لطائف المنن[٤] (.. ثم يرسم الله سبحانه وتعالى الطريق إلى حبه، وأول خطوة في هذا الطريق «أداء ما افترضته عليه»

---

(٢) الإحياء للغزالي ص ٢٦٠٧

(٣) آية ٩١ من سورة الأنعام.

(٤) هامش ص ١١٥ من كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري.

لن يأتي حب الله سبحانه دون أداء الفرائض والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله، ولقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل» لا بد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل.

ومع أداء الفرائض - في وجوب القرب - الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله «وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ورد ذكره في الحديث القدسي.

«من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما إفترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته ولئن إستعاذني لأعيذنه».

ثم يقول الدكتور عبد الحليم: ويربط

أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ ربطا محكماً بين محبة الله سبحانه واتباع نبيه رسول الله ﷺ متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وهذا الربط معناه: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى ـ في توفيقه ـ هي العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه : العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراز: « بلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن أناساً قالوا ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً، فجعل الله سبحانه لمحبته دليلاً وعلماً وأنزل عز وجل: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ في زهده وهديه وأخلاقه والتأسي به في الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله سبحانه وتعالى جعل سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام علماً ودليلاً وحجة على أمته، ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره

قبل أمر نفسك ».

وكل محب يتطلع إلى معرفة منزلته في قلب من يهوى، وقد أبان رسول الله ﷺ الميزان الذي به تستطيع أيها المحب أن تعرف به مكانك في دنيا المحبة لله. قال عليه الصلاة والسلام: « من أحب أن يعلم ما له عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه ».

يقول ابن عطاء الله السكندري في حكمه: أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن. فإذا شهدته كانت الأكوان معك. . يقول الشبلي: « لا يخط الكون ببال من عرف المكون » حقاً فمن كان معه الله كان معه كل شيء. سئل سهيل رضي الله عنه عن القوت. فقال: هو الحي الذي لا يموت.

فقيل: إنما سألناك عن الغذاء. قال: الغذاء الذكر.

فقيل له: إنما سألناك عن القُوام. فقال: القُوام العلم.

فقيل له: إنما سألناك عن طعمة الجسد، فقال: « دع من تولاه أولاً يتولـه آخراً، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردت لصانعها فهو العالم بإصلاحها ».

يحبهم . . ويحبونه

إن كرهتم الحب . . وأحببتم الكراهية . .

إن ارتددتم عن حب الدين . . وعن دين المحبة . .

إن قصرّتم فلم توفوا بشروط المحبة . . ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[1] وهذه الآيات ترسم صورة بديلة تصور هؤلاء الذين يحبون الحب ويهيمون بالمحبة ويتفانون في المحبوب ويجاهدون فيه وله لا يخافون لوماً ولا يخشون وعيداً . .

عن هذه الصورة يقول الإمام المرحوم سيد قطب[2]: « والصورة التي يرسمها المولى سبحانه

---

(١) من سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن الجزء السادس ص ٩١٨ طبعة دار الشروق.

للعصبة المختارة هنا صورة واضحة السمات قوية الملامح ـ وضيئة جذابة حبيبة للقلوب: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾.

فالحب والرضا المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم.. الحب: . هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبد من عبيده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها، أجل.. لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطى.. الذي يعرف من هو الله.. من هو صانع هذا الكون الهائل.. وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير. من هو في عظمته، ومن هو في قدرته، ومن هو في تفرده.. ومن هو في ملكوته.. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب، والعبد من صنع يديه سبحانه، وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر

والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها ، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً ،وفضلاً غامراً جزيلاً فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه هو إنعام هائل عظيم . . وفضل غامر جزيل . .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين . .

وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين ـ وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل ـ ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسى مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهي تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل لعبد من العبيد، والحب من العبد للمنعم المتفضل يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب.

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب. . وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة. . إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذ التصور أصيل: **﴿إن الذين آمنوا عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ ﴿وهو الغفور الودود﴾. . ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** . . وغيرها كثير.

ثم يقـول الشهيد سيـد قـطب: « إن نصـاعـة التصـور الإسلامي في الفصـل بين حقيقـة الألوهيـة . . وحقيقـة العبوديـة، لا تجفـف ذلك النـدى الحبيب، بين الله والعبيد، فهي علاقـة الرحمة كما أنها عـلاقة العـدل، وهي علاقة الود كما أنها عـلاقة التجريد، وهي عـلاقة الحب كما أنها علاقـة التنـزيـه، إنـه التصـور الكـامل الشـامل لكـل حاجـات الكينونـة البشريـة في علاقتهـا برب العالمين » . .

* * *

عن هـذه العـلاقـة التي وضعهـا الإمـام الشهيـد صاحب ظلال القـرآن بأنها عـلاقة رحمة وعدل عـلاقة تجريد قـد يعود إلى الأذهـان ذلك التساؤل الـذي يحال أن يستشف وأن يـعـرف وأن يصـل إلى الـكنـه وإلى الأعماق أعماق هذه العلاقة . .

ونحن نعـود فنقول إنـه ليس في المقـدور أن نصـل إلى الفـور حتى نستشف الكيفيـة والحقيقـة . . وليس في مقـدورنا إلا أن نُلقي بـالألفاظ ـ وبـالألفاظ فحسب . . شعاعاً يكشـف إلى حدّ ما حـدّ ضئيل قليـل يدل عـلى هذه العلاقـة . . ويكشف ولا يُعرف. فـالألفاظ ـ مهـما

ارتقت وارتفعت وسمت في ميـدان البـلاغـة فهي لا تصف النور إلا بأنه نور ولا تعبر عن الإشراق إلا بأنه إشـراق ولا تصـور الـوجـد إلا بـأنـه وجـد. . أمـا مـا تنـطوي عليه تلك المسميات فأسـرار يعـرفهـا من ألهم بـالنور وعـاش به، ومن نعم بـالإشراق وأحسـه هـدى ويقيناً ومن احترق بالوجد حتى أنضجته لهبه.

لا يعـرف الشوق إلا من يكـابـده
ولا الـصـبـابـة إلا مـن يـعـانـيـهـا

فـالكلمـات لا تعبّـر عن الحب ولا تفصـح عن حقيقتـه، وكما يقـول جلال الـدين الرومي: هـل يشم أريج الورد من الـواو والراء والـدال وهي الحروف التي تكوّن كلمة ورد؟

يقـول ابن الـقيم عن هـذه المـسميـات وتلك العـلاقات «لا تعلم حقيقتهـا إلا بذوقهـا ووجـودهـا، وفـرق بين الـذوق والـوجـود، وبـين التصـور والعلم، فـالحدود والـرسوم التي قيلت في المحبـة صحيحـة غـير وافيـة بحقيقتهـا، بـل هي إشـارات وعـلامـات، وتنبيهات».

كتب الحب الإسلامي

في مقدمة الكتب التي تحدثت عن الحب كتاب الله الكريم فقد دارت في آياته الشريفة مادة الحب والود والمحبة وما يشتق منها قرابة مائة مرة . .

وكذا أحاديث رسول الله ﷺ فيها أحاديث كُثر تناولت تلك العاطفة السامية النبيلة عاطفة الحب التي تلازم الإنسان من مولده إلى وفاته . .

وعديد من كتب الإسلام تحدثت عن الحب . . وعلاقات المودة وروابط المحبة والأشواق . . والمواجيد . . غير أننا إذا تتبعنا هذه الكتب فإننا نقول :

لا توجد في المكتبة القرآنية كتاب أفرد صفحاته كلها للحديث عن الحب . . وعن الحب فقط ، إنما

جاء حديث الحب في هاتيك الكتب كلها حديثاً عارضاً، أو جديثاً ضمن أحاديث أخر، أو تفسيراً لآية من آيات المحبة، أو تحليلاً لشخصية إلهية.. أو تسجيلاً لمواجيد العشاق والمحبين وتدويناً لأحاسيسهم وأحاديثهم.

ومبلغ العلم أنه لا يوجد كتاب خاص عن الحب في المكتبة القرآنية إلا هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن ولعل هذا الكتاب يكون بتوفيق من الله قد ملأ مكاناً شاغراً في المكتبة القرآنية.

والإنصاف يقتضينا أن نقول إن كتب التصوف الإسلامي لها بعد كتاب الله وسنة رسوله المقام الأسمى في مجال الحب فقد أفادت وأفاضت في هذ المجال العاطفي..

ومن أمهات كتب التصوف التي تعلمك الحب كتاب « لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري ».

وقد حقق هذا الكتاب القيم ووشاه بدقيق التحقيق وبارع التعليق الإمام الأكبر الراحل العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود فله ـ رحمه الله ـ جهد

محمود ظاهر في إخراج هذا الكتاب والتعريف بمؤلفه ـ وإيضاح ما خفي على بعض الأذهان من تعبيراته وما دق من إشاراته واصطلاحاته، يؤيد هذا ما حفل به الكتاب من هوامش كثيرة فيها تحلية وفيها تحلية. . وفيها تذوق. . وفيها من وراء ذلك كله إلهام وإشراق ودلالة على تفهم لعلوم القوم الظاهرة، وتذوق لما خفي من إشاراتهم وتعبيراتهم.

وكتاب اللطائف هذا يعلمك الحب: الحب في الله، والحب لله، والحب لرسول الله ﷺ، وللدعاة إلى الدين وللهداة إلى الله. .

فقد استفاض في الحديث عن هذه العاطفة السامية النبيلة، وأورد ما جاء حولها من نصوص قرآنية ونبوية وأقوال المحبين وأهل الهوى الإلهي. . وفصلها وفسرها وأبان أمارات الحب، وعلاماته، وبين من هو المحب الحقيقي، وكيف يتمحض للحب، ويخلص للمحبوب، وعن كأس الحب وشرابه وساقيه. .

وقد أفاض الكتاب وأفاد ـ وبخاصة عندما تعرض لقول المولى سبحانه ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾.

وعند حديث الحب ذاك وقف شيخ الأزهر والإسلام الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود وقفة طويلة فيها تعليق وتعقيب وإضافة استغرقت عدة صفحات شرح فيها أن المحبة صراط الأولياء، وأن الناس في العواطف درجات، ثم كشف في نهايتها عن علاقة المحبة بالعمل والإيمان والإتباع كما تحدث عن أسباب الحب وعن ثمرة المحبة وأجمل تعبيرات المحبين.

وكانت إضافة مفيدة جديدة منه ـ رحمه الله ـ عندما قال في حديثه هذا:

ولقد سمع الناس كثيراً عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة العدوية رضي الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرعى، ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية نعتبرها نموذجاً للصوفية في صلتهم بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلي.

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند

الشبلى، ولكن المؤرخين لحياة أبي بكر الشبليٍ يتحدثون عن حبه العميق وهيامه المستمر ومنهم ـ مثلاً ـ صاحب الحلية الذي يقول عنه:

« ومنهم المجتذب الولهان، والمستلب السكران، والوارد العطشان: اجتُذب عن الكدور والأغيار، واستُلب إلى الحضور والأنوار، وسُقي بالدنان، وارتهن ممتلأ ريان: أبو بكر الشهير بالشبيلي وسيرى القارىء أن أسباب المحبة عنده وأن ثمارها، وأن تصريفها، وكل ما يحيط بها منغمس في جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة الغراء..

ثم يقول الإمام الراحل ـ عليه رضوان الله ورحماته:

وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساساً لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة: فإنها فيما يرى الشبلي نتيجة « الهمة ».

والهمّة عند الصوفية هي: التشمير والجد في

العبادة.

ويقول الشبلي: «إن من قلت همته ضعفت محبته».

فمع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعوداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جميع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال في حزن:

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى
منازل من يهوى معطلة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شيء فقال: من عرف الله ثم عصاه.

والمحب لا يسر ولا يفرح بشيء أكثر من موافقة من يحب. لذا قال رجل للشبلي: إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟

قال: إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته، وأنشد:

أسّر بمهلكي فيه لأني
أسّر بما يسر الإلف جداً

ولا بـد للمحب من الأدب الكـامـل في القـول فضـلاً عن السلوك يقول الشبلي « الانبسـاط مع الحق بالقول تـرك أدب » والمحبة عنـد الشبلي : اتباع أوامر المحبـوب وتجنـب نواهيه، ومع ذلـك فيجب: الصدق والإخـلاص وكتمـان الحـال مـع بـذل الجهـد في المجاهدة . . ثم بعـد ذلـك لا تـوصل للمحبـوب إلا بفضله ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ .

وتـراثنـا الـروحي يفيض بـالكتب التي تعـرضت للحب وأغرت به . . وحرضت عليه . .

ففي الرسالة القشيرية للإمام القاسم عبد الكريم القشيري نجد باباً عن المحبة وآخر عن الشوق .

وفي الكتب التي تناولت شرح أحـاديث رسول الله ﷺ نجـد فيهـا الـرائـع البـارع والعجيب المعجب عن هـذه العـاطفـة عـاطفـة المحبـة والمـودة والشـوق وعن الـوصـول . . والـوصـل . . وعن كـل مـا يتعلق بهـذه الأحوال من أقوال رسـول الإنسانيـة والسلام محمـد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأزكى سلام .

ولننتقـل الآن من التـالـد . . إلى الـطريف، من

كتاب التراث إلى الكتب المعاصرة التي جالت في هذا المجال أو ارتبطت به بسبب من الأسباب .

من الكتب التي ظهرت أخيراً كتاب « رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام » للمرحوم طه عبد الباقي سرور تحدث رحمه الله في هذا الكتاب عن رابعة العدوية ونشأتها وأثرها في الروحانية الإسلامية ، وتحدث عن الحي والتصوف وعن رابعة رائدة الحب الإلهي ، وفي حديثه عن المقامات الروحية في الإسلام كمقام التوبة والرضا والمراقبة تحدث عن مقام المحبة ، وعن رابعة والمحبة ، وكيف أنها صعدت في هذا المقام درجات ودرجات حتى وصلت إلى أعلى درجات المحبة وذلك عندما تعجبت من هؤلاء الذين يعبدون الله لقاء الأجر!!

فتمنت لو قدرت على أن تُشعل النار في الجنة حتى تزول وأن تسكب الماء على جهنم حتى تنطفىء ، وبذلك ترتفع الحجب ويزول الغشاء عن طريق السالكين إلى الله لا يحدوهم أمل ولا يُفزعهم خوف لا يرهبون النار ذات الوقود . ولا يعبدون الله لأجل نعيم الجنة ، إنها تقول بعد أنْ وضعت النار في يد

والماء في يدها الأخرى أنشأت تقول ذلك القول الرمزي: سأشعل النار في الجنة وأسكب الماء على النار حتى ينجاب الغشاء عن طريق السالكين إلى الله، ويتبين مقصودهم، ويشاهدوا الله لا يحدوهم أمل ولا يفزّعهم خوف، أفإن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد؟! ولم يطعه أحد؟!.

وقد يعجب البعض لهذا القول من رابعة.. ولا عجب فالصوفية يحبون وهدفهم في الحب.. خالق الجنة.. لا الجنة هم لا يتطلعون إلى أجر ولا يتطلبون جُعلاً في نظير عبادتهم.. إنهم يعبدون الله من أجل محبة الله.

فرابعة لا ترى في الوجود إلا خالق الوجود، ولا تحب في الكون إلا المكوّن وحده سبحانه وتعالى.. فالصوفي حبه لله، والعابد حبه للأجر، وللثواب، وللجنة، وفرق بين من يحب الجنة ومن يحب صاحب الجنة. هم يفرون من الكون إلى المكون، ومن النعمة إلى المنعم، ومن الخلق إلى الخالق، ومن النفس إلى خالق النفس ﴿ففروا إلى الله﴾ الهدف الله. الغاية الله.. والله وحده لا الثواب ولا العقاب:

لذا كان هؤلاء المحبون يجاهدون . . ويحاربون ويستشهدون متمنين لقاء الله راغبين في الموت والاستشهاد ويقولن : ما رأينا خيراً قط إلاّ من ربنا فكيف نكره لقاء من لم نر خيراً إلا منه .

ومن الكتب الإسلامية التي ظهرت حديثاً ذلك الكتاب الذي ألفه العارف بالله الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود عن « أستاذ السائرين الحارث المحاسبي » .

في هذا الكتاب عرض الإمام الراحل أقوال المحاسبي عن المحبة وآراءه فيها وتعريفه لها ومعرفته بها وعلامات أهل الصدق من المحبين وتردد قلوب المحبين بين الخوف والرجاء . . خوف من ماذا؟ ورجاء لماذا؟ يجيب عن ذلك المحاسبي فيقول : « إنهم يخافون خوفاً لما ضيعوا في سالف الأيام ، خوفاً لازماً لقلوبهم ثم خوفاً ثابتاً ـ لا يفارق قلوب المحبين ـ خوفاً أن يسلبوا النعم إذا ضيعوا التشكر على ما أفادهم . فإذا تمكن الخوف من قلوبهم هاج الرجاء بذكر سعة الرحمة من الله ، فرجاء المحبين تحقيق وقربانهم الوسائل ، فهم لا يسأمون من خدمته ، ولا ينزلون في جميع أمورهم

إلا عنـد ربهم لمعـرفتهم بـه أنـه قـد تكفـل لهم بحسن النظر ».

ومن نـافلة القول أن نقـول إن كتاب إحيـاء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ـ وهو من أنفس الكتب الإسـلامية الغنيـة عن التعـريف ـ وقـد تحـدث الإمـام الغزالي في كتابه هذا في الربع الخاص بالمنجيات حديثاً مستفيضاً عن المحبة والشـوق والأنس، كما تحـدث عن حب الذات وحبّ الجمال.

وقد كشف في إفاضـة وعمق عن الأسباب المقـوية لحب الله، وكيـف يتـفـاوت النـاس في الحـب شـدة وضعفاً كما تحدث في إسهاب حـديث العالم الخبـير ـ ولا ينبئـك مثل خبـير ـ عن الشوق إلى الله تعـالى، والأنس به كما استفاض في الحديث عن الرضا وحقيقته.

وفي النهاية عـرض بعض قصص المحبين وأقـوالهم ومكاشفاتهم.

وقبل ذلك تحدث في الربـع الخاص بـالعبادات من كتـابه عن الأخـوة في الله.. والأخوة في الـدنيـا، وعن الـبغض في الله، وعـن حـقـوق الأخـوة وعـن آداب الصحبة والمعاشرة.

من مناجاة المحبين

من مناجاة رسول الله ﷺ لربه:

« اللهم إني أسـألـك حبـك، وحب من يحبـك، والعمل الذي يقربني إلى حبـك ».

« وأسـألك لـذة النظر إلى وجهـك.. والشوق إلى لقائك ».

* * *

ورابعة كانت تناجي ربها وتقول:

إذا كنت أعبـدك خوفـاً من نـارك فـاحـرقني بنـار جـهنم، وإن كـنـت أعـبــدك طـمـعــاً في جـنـتــك فاحرمنيها..

أمـا إذا كنت أعبدك من أجـل محبتك فـلا تحـرمني من مشاهدة وجهك.

يا رب أجعل النار لأعدائك . . والجنة لأحبائك . . وأما أنا فحسبي أنت » .

حبيبي ليس يعدله حبيب
ولا لسواه في قلبتي نصيب
حبيبي غاب عن بصري وشخصي
ولكن في فؤادي ما يغيب

وقالت :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسي
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وناجت فنادت :

يا سروري ومُنيتي وعمادي
وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي
أنت لي مؤنسي وشوقك زادي
إن لم تكن راضياً عليّ فإني
يا مُنى القلب قد بدا إسعادي

وهذه المناجاة تروى عن يحيى بن معاذ:

إلهي .. إني مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال: ستراً وتوبةً، وزهداً شوقاً، ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك وتمهلني في رياضك، ملازماً لأمرك.. مشغوفاً بقولك كيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا منك صغيراً؟! فلي ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأني محب، وكل محب بحبيبه شغوف وعن غير حبيبه مصروف.

ومن مناجاة ابن عطاء الله:

إلهي : ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك..
لقد خاب من رضي من دونك بدلاً
ولقد خسر من بقي عنك متحولاً

إلهي : كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان.
وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الإمتنان؟

إلهي : إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنة علي
وإن ظهرت المساويء مني فبعدلك ولك الحجة عليّ
إلهي : ما أقربك مني، وما أبعدني عنك
إلهي : كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك
أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك
متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك
ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي الموصلة إليك
إلهي : عميت عين لا تراك عليها رقيباً
وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً
كيف تخفى أنت الظاهر..
أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر
أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك
وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك
أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم

وأنت الـذي هـديتهم حيث استبـانت لهم
المعالم

إلهي : إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك
كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك .

وفي كتاب « النبي الإنسان » للأديب المرحوم محمود تيمور ترنيمة إلهية، ومناجاة صوفية، بل ورد من الأوراد كله ابتهالات علوية، وسبحات قدسية، وصبوات إلهية. صادرة من أعماق « تيمور » الصوفي الروحي تنم عن تدين موغل في العمق، وتكشف عن نفس سمحة خيرة، ظاهرها كباطنها . . هو الصفاء والسمو والإشراق . .

يقول في ذلك الورد « التيموري » : قل : يا رب . . يا رب . . كلمة واحدة . . أذكرها ولا تزد عليها . . فأنت في غُنية من مزيد . . رطّب لسانك بهذه الكلمة القصيرة، ودع ما عداها من كلمات طوال أنس كل شيء حولك، بل أنس وجودك، وأنس علمك وخبرتك، وصح قائلاً : يا رب . .

قلها في صيحة صامتة، فليس الله بحاجة إلى من يُعلي الصوت وبرفع النداء . .

قلها لنفسك، ولا تُسمعها أحداً غيرك، فما انتفاعك بأن يسمعها الناس منك.. إنما انتفاعك بأن تسمعها أنت نفسك مناجاة تتجاوب أصداؤها في حنايا قلبك..

قلها كلمة واحدة، وحسبك بها، فالله هو الكلمة الواحدة لهذا الكون الحافل العظيم.

قلها مرات ومرات...لا تسأم التكرار والترديد..

قلها في أي وقت شئت، وفي أي مكان حللت، سواء أكنت في خلوتك، ظافراً بوحدتك، أم كنت في معترك العيش تخوض الزحام..

قلها في إصرار، في عمق، في نشوة.. قلهاونت في غفوة النوم، أو في صحوة اليقظة..

قلها في ضراعة المستغيث من كربته، وفي قوة المطالب بحقه..

قلها وأودعها كل ما تهفو إليه من مطامح ورغاب، فإنها لا تضيق بشيء مما تنفسح له خلجات النفوس وأهواء القلوب.

قلهـا أنت ظالم جشـع، أو مـظلوم مـوتـور، قلهـا وأنت منتصر جبار، أو مستضعف مهزوم . .

قلها وأنت مسرور يهز أعطافك المرح، أو محـزون ينوء كاهلك بالأثقال والخطوب . .

قلهـا أبـداً مهـما يكن من أمـرك، وعـلى أي حـال تكـون، فإنـك بعد أن يلهـج بها لسـانك، لا تلبث أن تحس أنك ذلك المخلوق الـذي عرف الخـالق . . عرف الله، فانكشفت له الحقيقـة الأزلية من وجـوده، وزالت الغشـاوة عن عينيه . . غشـاوة الاختـلاف بـين إنسـان وإنسان، وإن تباينت الألوان . .

يا رب :

نداءٌ يا له من نداء . . فيـه يتركـز كل مـا يهتف به الـدعاة من صلوات وابتهـالات منـذ ارتفـع عـلى ظهـر الأرض دعاء إلى أين يطوي الله الأرض والسماء .

فيـه تنـدمـج الأديان، فـإذا هي دين الله، وتـأتلف الأوطـان، فـإذا هي وطن الإنســان، فيـه ينبض قلب الكون كله نبضة واحدة ملؤها طهر وصفاء .

نداء ينتـظم النـاس أجمعـين في سمـاط واحـد هـو

سماط الإنسانية الخالد . .

نداء يسمو بك على كل ما يخدعك في هذه الحياة من جاه زائف، ومال زائد وسلطان يبيد .

نداء يصلك بتلك الروحانية السرمدية . . روحانية الله في ملكوته الأعلى .

يا رب :

كلمة ينبعث بها صوتك ؛ فإذا هو صدى لصوت البشريه في كل جيل وقبيل . . البشرية المبتهلة دائماً إلى الله ، لأنها أبداً في حاجة إليه ، يؤنسها في الوحشة ويهديها من الحيرة ، ويعينها على الطريق . . متى قلتها في إيمان ويقين عرفت كيف يستجيب الله الدعاء ويلبي النداء . .

متى قلتها في حرارة تذيب نفسك ، وتصهر سريرتك ، شعرت بأنك قد اغتسلت وتطهرت فتألق نور عينيك ، وشاع الصفاء بين جنبيك ، وكأنك قد نبت لك جناحان يرّفان ، فأنت بهما في خفة الطير تحلق في الفضاء الفسيح :

يا رب :

ما هتفت بك مرة إلا أحسست النورانية تشرق في قلبي.

ما هتفت بك مرة إلا استشعرت الطمأنينة الساجية تشيع في نفسي.

ما هتفت بك مرة إلا آنست فورة الأمل وانبعاث الحيوية، لا حيوية الفتك والتدمير، بل حيوية الحب الشامل العطوف.

يا رب..

لا أرهب شيئاً ما دام ندائي لك ملء سمعي، حتى أنت لا أرهبك؛ لأن حبّي إياك يعمُر قلبي، والمحب الصادق لا يتطرق إلى قلبه الخوف ممن يحب..

ما أخافك إلا إن أحسست البعد عنك، وكيف أبعد عنك وأنا بندائي لك قريب منك.

ربما كنت أنا خاطئاً فيما كُتب عليّ من شرّ، ولكني أحب فيك الخير يا صانع كل خير أحب فيك الطمأنينة والسلام، يا منبع كل طمأنينة وسلام..

يا رب..

ما أسعدني بحبي إياك

أنا لا أخشى أعاصير الحياة، لأني في عصمة منها بالطلاسم، وليست هذه الطلاسم إلا ما أجد لك في قلبي من حب دائم موصول، أنا لا أضيق ذرعاً بالآلام؛ لأني أجد في نسمة رضاك ما يمحو الآلام، ويأسو الجراح . .

يا رب . .

لم أعد أعرف إلا وجودك معي حتى الموت لا أرهبه ولا أتهيبه، فهو يدنيني منك، ويجلو لي وجهك الوضاح، أنا إذا نمت مطمئناً رخيّ البال، فاسمك آخر ما تلفظ به شفتاي، وأصحو ـ إذا صحوت ـ متفائلاً طلق الأسارير، فندائي لك أول ما يلهج به لساني . .

ما أحوجنا إلى أن نراك رأى البصيرة، فالبصائر أقوى على الاتصال بكل ما هو مكنون، بكل ما هو حق، بكل ما هو خير . .

نريد أن نستجلي ببصيرتنا ضوءك، لكي نغترف من حنانك وشفقتك، لكي نروي قلوبنا بمحبتك . .

إننا نتشوف إلى رؤيتك، فلا تحجب عنا قبساً من نورانيتك . .

إننا نحس الوحشة في عالمنا على ضجته، فهي ضجة الطبل الأجوف، تثير فينا فزعاً ورهبة!!

إذا لم نستشعر وجودك يفيض علينا أنساً ودعة، فنحن في وحدة وانفراد، وإن كنا في جمع حاشد، وشمل جميع، فلا تكلنا إلى هذه الوحدة الموحشة . . وحدة النفس المشردة، لا سكينة ولا سلوى.

يا رب . .

نحن في اضطراب يتلوه اضطراب . . تسلمنا ألغاز الحياة إلى ألغاز . . نحن في ظلمة حالكة حيارى، لا ندري أين المساق؟! فاكشف عنا الحجب. واهتك أستار الظلام، واشرق علينا بنورك . . نور الحق . . والخير . . والحب . . والسلام . .

يا رب . .

إنك لتسمع دعائي . . وإنك لتجيب ندائي

كلماتك تتأدّى إليّ ، بلا واسطة من أصوات،

فإن الأصوات تطرق الآذان، ولكن كلماتك تنفذ سوّاً إلى القلوب.

أسمعني صوتك يا رب..

أنر بصيرتي لرؤيتك يا رب.

أسقني من فيض رحمتك يا أرحم الراحمين».

* * *

وعن محبة رسول الله ﷺ ومحبة شريعته والدين الذي نزل عليه، يقول محمود تيمور في كتابه السابق «النبي الإنسان» يقول:

«لقد تمثل الدين لي جوهراً وروحاً أكثر منه رسوماً وقواعد، ومعنى جليلاً أكثر منه لفظاً محدوداً.. لقد أصبح عندي فكرة عميقة تسري في شرايين الحياة مسرى الدم في شرايين الإنسان، حتى لقد استبان لي هذا الدين فوق الأوامر والنواهي.. وفوق الرسوم والتعاليم..

كان مفتاح فهمي لرسالة الإسلام أني تصفحت حياة الرسول - ﷺ - جانباً بعد جانب، فتجلت لي شخصية عامرة بالعظائم في بناء كيان الأمة، وفي

تقويم خلق الفرد، وفي نهج الحياة لسالكيها من سائر الناس، أخذت بيدي هذه الشخصية الفذة تهديني طريق الحق والدين، فوجدتني أحب هذا الدين، وأحب فيه رسالته التي جاء بها رحمة وهدى.. سبحانك اللهم وتعاليت فيما قدرت.. وفيما اخترت..

اصطفيت رسولك.. «محمداً» لأداء رسالتك، فما كان اصطفاؤك إياه لهذا الأمر العظيم إلا لأنه كفء عظيم.. لعمر الحق إن محمداً ﷺ كان بشخصيته، وبخصائصه، قوة للدين، ومدداً للإيمان ومناراً يرفع الغشاوات ويكشف الحجب.

أينبعث النور وضاحاً من مصباح أقتم أغبر؟!

لقد حمل «محمد» ﷺ شعلة الإسلام فأضاءت في يده، وازدادت من توهج، وأشاعت من حوله الدفء والضياء..

كانت حياة الرسول ـ ﷺ ـ قبل مبعثه حياة تكمن فيها خصائص النبوة، وتتمثل أخلاق الرسالة، فلم يكن ـ بعد أن بعث رسولاً إلى الناس ـ شخصاً جديداً على الناس في الأخلاق والسلوك والأهداف.

ولـو جـاز لنـا أن نستشف معـالم الإسـلام قبـل الدعوة المحمدية إليه لتراءت لنـا هذه المعـالم من خلال حياة محمد ـ ﷺ ـ قبل الإسلام.

إن الله سبحـانه إذا أراد أمـراً هيـأ لـه أسبـابـه. . وسنـة الله في خلقه ولن تجـد لسنة الله تبـديـلاً. . فـلا غـرو أن يكـون محمـد ﷺ هـو الأفق الـرفيـع الـذي صـاغته يـد العنـايـة الإلهيـة، لكي يشـرق من جـانبـه كوكب الدين باهر لألاءً. .

شخصية محمد ـ ﷺ ـ تـرجمة حيـة لكتاب الله؛ اذا قرأت قرآنه طالعتـك الصحائف الغـر من حياة رسـوله ﷺ ومن ميـزاته، وكـأنما شـاء الله أن يسوق لنـا منهـج الـدين في كتابـه، و أن يتبعه تـطبيقاً عمليـاً، ونمـوذجـاً بشـرياً في حيـاة محمـد ﷺ، وفيـها أثـر عنـه من ألـوان التصرفات في شتى شئون الحياة. .

كـان محمـد عليـه الصـلاة والسـلام رجـل دنيـا ودين. . أحب الـطيبات من متـاع العيش وسعي إليهـا سعي الأخيـار بوسـائل الأخيـار؛ لأنه كـان يرى الله في ما يعمل، مقيماً ضميره مقـام الرقيب السـاهر، وذلـك هو جوهر الدين الخالص. . ذلك هو الإسلام.

يهيب بك الإسلام أن تستمتع بدنياك طولاً وعرضاً ما طاب لك، ويدفع بك الى الضرب في مناكب الأرض استخلاصاً لما على ظهرها وما في باطنها من كل شيء، فلتفعل ما تهفو إليه نفسك من مأكل ومشرب وملبس، ولتلتمس كل ملذة من وجهها المشروع.. لا حرج عليك ولا تثريب.. ما دام ذلك منك في غير عدوان ولا سرف.

كان محمد ﷺ إنسانياً قبل أن يكون نبياً، فلما أظلته نبوته لم تبرحه إنسانيته، بل زكت وتوهجت، وبقي إنساناً في جوانب حياته تتصل أرومته بأرض البشر. وتسمو روحه إلى الملأ الأعلى.. أحب محمد ﷺ وأبغض، وأناب وعاقب، وعامل الناس كما يحب أن يعاملوا، لا رحمة في غير مرحم ولا قسوة إلا حين تقتضيها حكمة، وهكذا عاش محمد ﷺ في دنياه فرداً منها لا شذوذ ولا انفصام.. كذلك كان دين محمد إنسانياً مثله، من فهم أسراره من الناس لم يُسريه منه شيء؛ فإنه واجد فيه وشائج النفس البشرية في أطوارها ومنازعها، وواجد فيه مع ذلك سمواً بهذه النفس البشرية إلى الأوج الرفيع..

أهل الهوى

من أهل الهوى.. أهل الله.. أحباب الله الذين عاشوا هائمين في جوى وشوق وذكر وفكر..

عن هؤلاء وجدت هذه الأبيات مكتوبة في مخطوطة صوفية بدار الكتب المصرية.

قوم سكارى في محبته
كساهم الحب بين الناس أثواباً
خمص[1] البطون إذا ما قال واحدهم
يا رب، فتحت الأبواب إيجابا
لا يحجبون على أبواب سيدهم
بل هم أقيموا على الأبواب حجابا
إذا تجلى هم في طيب حضرتهم
تاهوا من السكر إذلالا وإعجاباً

---

(١) خمص البطن: فرغ وضمر

بالذل عزوا وبالإقلال قد كثروا

وقاطعوا فيه أسباباً وأحساباً

فاختر لنفسك ماذا أنت فاعله

ولا تكن في فبعال الخير مرتاباً

وإلا فخل حديث الحب مطرحاً[٢]

فإن للحب خُطابا وطُلابا

كما وجدت أيضاً هذه الأبيات :

قُتلوا ولكن في هواه عذارا[٣]

قوم يعدون التستر عارا

واستعذبوا في الحب وجدان الهوى

واستوطنوا فيه التهتك دارا

وتوسدوا[٤] فرش الضنى وتدرعوا[٥]

ثوب الفرا[٦] واستعبدوا أحرارا

---

(٢) مطرحاً : مبعداً له .

(٣) العذار : الحياء .

(٤) توسد الوسادة جعلها تحت رأسه وتوسد ذراعه نام عليه والضنى الألم : جعلوا فراش الألم وسادة لهم .

(٥) تدرعوا : لبسوا .

(٦) الفرا : حمار الوحش .

قـوم إذا ذكـروا لـيـالي وصـلهـم
وهبـوا النفـوس وطلقـوا الأعـمـارا
وإذا حـدى[7] حـادٍ بـذكـر حبيبهم
نشروا الـدمـوع وفـرقـوا الأطمارا[8]
هـبت عليهـم نـفـحـة قـدسيـة
نـشـرت لهـم في طـيـهـا أخـبـارا
فـالقـوم من ذاك الحـديث وصيبـه
من غـير ما شـربوا الـدموع سكـارى
هـذا، وما عـرفوا المدام[9] فكيف لـو
عرفوا الخمار[10] وشاهـدوا الخمارا[11]؟

وعن أهـل الهوى. . وأرواحهـم وهيـامهم والأنـوار التي تغمـرهم وألـطاف الله وتجليـاتـه عليهم يقـول شاعرهم:

---

(٧) حدى: غنّى.
(٨) الأطمارا: الأثوابا.
(٩) المدام: الخمر.
(١٠) الخُمار: صداع الخمر.
(١١) صانع الخمر وبائعه.

تجلى علينا الله، والليل أُردفت
ذوائبه، والناس في الليل نُوَّم
أخذنا شجون العشق نخلو بنفسنا
وأرواحنا في ربِّها تتهيم
إذا كانت الأجساد تُروى من الثرى
فإنا بنور الله نُروى ونَنعم
نعم، نحن من أبناء آدم عنصراً
ولكننا فوق السموات نُكرم
فحجتنا القرآن وهو إمامنا
وقدوتنا المختار وهو المعلم
فلم تك إلا للإله عبادتي
ومن عبد الرحمن بالعفو يُرحم
أتحسبني أنساه في العمر لحظة
وكيف وقلبي باسمه يترنم
أفاض عليَّ الحق من بحر نوره
فقلبي بغير الحق لا يتكلم
زَهِدْتُ حياتي إذ فنيت بحبه
ومثلي ومن في حضرة الحق يُعدم
فيا هذه الدنيا اصنعي ما أردته
فإن رضاء الله للقلب أكرم

ولـست بـشـاك مـن كـفـافي وقـلـتـي
فــلي فضله - عن كــل لهــوك - مغـنم

شراب الحب . . والكأس . . والساقي

أما عن شراب الحب . . وخمر القرب . . والكأس والساقي والسكر والصحو وأمثال هذه التعبيرات التي توجد في أشعار أهل المحبة الإلٓهية فمن نافلة القول أن نقول إنهم ينزهون المولى ويقدسونه ويصفونه بكل صفات الجمال والكمال، وأن وراء ألفاظهم هذه دلالاتأخرى وإشارات ورموز .

يقول علماء الرمز إن الخمر، هي الأنوار الساطعة من جمال المحبوب تُسكر وتدير الرؤوس والقلوب .

والكأس : هو الوسيلة التي تنقل أثر ذلك الجمال إلى الأفئدة والوجدان .

وإن الساقي رمز إلى المولى سبحانه .

وأن الذائق هو الذي كشف الله له عن هذا الجمال أو عن بعضه .

فمن حظي بلحظات تمتع وحب. . فهو الشارب كالذي يشرب جرعات ورشفات فقط.

أما الذي توالت عليه الأنوار فهو الذي بلغ مرتبة « الريّ ».

أما الذي ارتوى وظل يشرب. . ويشرب حتى غاب عما حوله من محسوس ومعقول، ولم ير إلا فيوضات ربه، فهذا هو السكران الذي غاب عن الوجود.ولم ير إلا الله الواحد الموجود.

وأوقات الصحو: هي التي يرتد فيها السكارى إلى صحوهم وإدراكهم وإدراك ما حولهم وما يحيط بهم.

وقد يتأفف البعض من هذه الرموز أو من بعضها ولكن الرمزية لها مجال في بعض أمورنا التعبدية: يقول الإمام الشهيد حسن البنا[1]: « والرمزية هي اللغة الوحيدة لتمثيل المعاني الدقيقة والمشاعر النبيلة، التي لا يمكن أن تصورها الألفاظ، أو تجلوها العبارات.

والذي يعظّم عَلَم وطنه أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها مادياً، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معاني المَجد والسمو التي يعتز بها وطنه ـ وأنها تصور أدق المشاعر في وطنيته، فهو يحيي هذا العلم ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعاني التي تجمعت جميعاً وتمثلت فيه.

والكعبة المشرفة عَلَم الله المركوز في أرضه، ليمثل به للناس أوضح معاني أخوّتهم، وليرمز له إلى أقدس مظاهر وحدتهم، وإنما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ومن أجل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

وهذه اللغة الرمزية. هي لغة عقلانية عالمية واسعة ـ إن صح إطلاق هذه النعوت عليها.

إن هذه اللغة.. لغة الرمزية قد تحدث بها الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت[1] وفسر لنا بها بعض مناسك وأعمال الحج، قال:

« فما الإحرام في حقيقته ـ وهو أول المناسك ـ إلا

التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل ما سوى الله، وعلى التفكير في جلاله.

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله صُنعَ المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذي تُريٰ ولا تدرك ذاتُه.

وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماساً للمغفرة والرضوان.

وما الوقوف بعد السعي إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين.

وما الرمي ـ بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها ـ إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزعات النفس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

وما الذبح ـ وهو الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة

الطهر والصفاء - إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار».

في محراب الحب

صبوات وصلوات، وخفقات وابتهالات، ومواجيد وأشواق، وحنين وزفرات وشئون وعبرات، وقلوب خافقة، وأفئدة نابضة بالحب كل الحب.

أصحاب هذه الحالات هم أحباء الله، في محراب الحب يهيمون، يتعبدون بالمحبة[1] ويتنفسون العشق، يذكرون ويتفكرون، ويجالسون الله.. بعيدون عن الخلق مشغولون بالخالق، تحلق أرواحهم في سموات ومجالات.. تطوف فيها وتحوم وتشهد وتسيح في عوالم وأجواء عزيزة منيعة إلا عليهم وهذا عابد في محراب الحب عرف وأحب وشاهد وهام..

---

(١) قال الحلاج رضي الله عنه. ما من أحد يعبد الله بعمل يكون أحب إلى الله من حبه تعالى.

عرف ربه وأنس به في سره وعلنه وهام في مشهد قدسه هو شاعر الأولياء الشيخ علي عقل الذي يقول:

وعشت زماني لست أحفل بالورى
وكيف، وقلبي هام في مشهد القدس
ولم أخش من بأس ولم أخش طاغياً
ومن يخش ذات الله لم يَرَ من بأس
وهل غير ذات الله للنفس مطلب
حرام سوى الرحمن يدخل في نفسي
وتوّجت بالقرآن نفسي عقيدة
أصون به نفسي عن الزيغ والدسّ
وإن شرب الناس الطلا[2] وتصببوا
فسنة خير الخلق في شربها كأسي
وما اتخذت روحي سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس
وإن رفع المثرون عجباً رؤوسهم
رفعت بذكر الله فوق الورى رأسي

---

(٢) الطلا: الخمر.

وإن غـرسـوا زرعـاً لنيـل حصـاده
فتقوى إله العـرش بين الـورى غرسي
تعشقت نـور الله وهـو بـصيـرتي
وقـد وضح البـرهان من آيـة الكـرسي
وقد شاهـدت روحي جلالـك وارتقت
تجـرّدت عن معنـاي في عـالم الحسّ
أحـبـك يـا ربي محـبـة مـوقـن
وفي قـوة الإيمـان أصـبـح أو أمسـي
أمتـع أعـضـائي بـذكـرك دائـماً
وهـل غـير ذكـر الله يسكن في نفسي
وكـل رجـائي أن أحبـك صـادقـاً
إذ الصـدق في الإيمان مـرتبـة القـدس
إذا رضـي الـرحمن عـن قلب عـبـده
جرت مركب الأقـدام معه ء لى اليبس

ويقول:

ألـوذ بـالله لا أبـغـي بـه بـدلاً
ومـن يـلوذ بـبـاب الله يـسـعـده
أخـلي فؤادي لـه من كـل شـائبـة
إن عشت أو مت أعضـائي توحـده

وكيف أرضى بغير الله متجهاً
والكل والجزء والأحشاء تعبده
إذا سهرت فما أسهرت عن ملل
لكنه الحب يدعوني وأشهده
ومذ تغزلت في ربي، وما ألفت
روحي سواه، تجافى الجفن مرقده
إذا مددت يدي لله أسأله
مدت إولى بمعنى فضله يده

وعن الذنب والحب يقول:

إذا رابني ذنبي دعتني محبتي
إليه، وما تُثنى الذنوب عن الحب
حياتي حياة المذنبين ومهجتي
لها أدب في الحب جل عن الذنب
أضاء الهدى قلبي ونقّى سريرتي
فلست كبعض الناس أنسب
للترب
فيا رب إن زادت ذنوبي فإنني
وثقت بأن الفضل أوسع من عيبي
فإن كان ذنبي فبُعدي عنك لحظة
فإنك غفار الذنوب بلا ريب

والقلب هو محراب الحب . . هو معبد المتعبد .

والقلب على صغره وسع عوالم وأجواء وأضواء « ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » .

هو موطن الذكر والفكر والشكر والزهد وهو باب السمو إلى الروحانية « إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله » **﴿إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾** .

ومحبة الله إذا سكنت أثرت في القلب . . وفي القالب وأثرت في الروح . . وفي النفس ولمحبي المولى سبحانه تعبيرات قد توهم بشيء من التحيز والتجسد بالنسبة لله تعالى وذلك حينما يعبرون عن سكناه في القلب ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وحاشا لذات الله أن تتصل بجسد مخلوق، وما غابت هذه البديهية عن قلوب المحبين وعن عقولهم .

إنما هم يقصدون من تعبيرهم هذا أن محبة الله تعالى هي التي تسكن القلب وتشغل الفؤاد، كما يسكنه الإيمان بالله ، والثقة فيه ، والتوكل عليه .

يقول إبن الفارض في حب القلب والقالب:

أنتم فروض ونفلي
أنتم حديثي وشغلي
يا قبلتي في صلاتي
إذا وقفت أصلي
جمالكم نصب عيني
إليه وجهت كلي
وسركم في ضميري
والقلب طور التجلي

والإمام الشبلي يقول عن سكن المحبة في القلب:

إن بيتا أنت ساكنه
غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا
يوم يأتي الناس بالحجج

كما يقول:

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وحبك مقرون بأنفاسي
ولا جلست الى قوم أحدثهم
إلا وأنت حديثي بين جلّاسي

أما هذا الذي أوقفت كيناه وجنانه وجوارحه على محبة ربه إنه شاعر الأولياء فهو يقول بعد أن سكن حب ربه قلبه :

عميت عيوني عن سواه وإنها
أبداً لغير جلاله لا تدمع
أذني عن الأغيار صمت فهي في
كل الأمور إلى السوى لا تسمع
قلبي له بيت به في رفعة
والبيت بالسكان قدراً يُرفع

وهذا الحلاج الذي شغلته محبة الله عن كل ما سوى الله يقول مخاطباً الله :

سكنت قلبي وفيه منك أسرار
فلتهنك الدار بل فيهنك الجار
ما فيه غيرك من سر علمت بة
فانظر بعينك هل في الدار ديار
وليلة الهجر إن طالت وإن قصرت
فمؤنسي أملي فيها وتذكار
إني لراض بما يرضيك من تلفي
يا قاتلي، ولما تختار أختار

إنه يهنىء نفسه ويقدم لها التهنئة لأن محبة المولى قد سكنت قلبه واستقرت في وجدانه وأن الجار والدار وكل ما حوله . . ومن حوله . . لا يرى فيه إلا الله . . الذي استحوذ على سره وأمره كله وأنه باع نفسه لله الذي يحبه ويهواه وأنه يختار ما يختاره له مولاه . . ويرضى بما يرضاه . . يرضى بالهجر لأن في ليالي الهجر أنس بالذكرى . . وبالذكريات وبالآمال . . ويرضى بالقتل لأن القتل كان بتقدير المحبوب . . فكان فيه راحة المحب.

ولا عجب أن سمعنا الحلاج من أجل ذلك وبعد ذلك يشدو فيقول :

اقتلوني يا ثقاتي ... إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي ... وحياتي في مماتي
فاقتلوني واحرقوني ... بعظامي الفانيات
ثم مروا برفاتي ... في القبور الدارسات
تجدوا سرّ حبيبي ... في طوايا الباقيات

ولا مجال للعجب من قوله الحلاج السالفة لأنه يرى - كما يرى كل المحبين لله - أن محبة الله هي المعراج الموصل الى الله وإلى معرفته فهو يقول : « لا

سبيل إلى معرفة الله بالعلم، بل إن الحب هو الطريق الموصل إليها إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهي هي التي تقربنا إلى الله تعالى، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهي في كل لحظة ».

وعن قتل الروح وبذل النفس في سبيل الحب كان يقول « ابن الفارض » وهو سلطان العاشقين كما يلقبه الصوفية:

مالي سوى روحي وباذل نفسه
في حب من يهواه ليس بمسرف
فإذا رضيت بها فقد أسعفتني
يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وعن الهوى وسلطانه على أهله.. أهل الله.. الأتقياء الأنقياء الأولياء يقول شاعر الأولياء:

الحب فيه حارت العقلاء
هو قوة للمرتجى وضياء
وله على الأرواح أكبر عصمة
وهو الأمان وللنفوس وقاء
فإذا عشقت الله عشقاً صادقاً
كن بعد ذلك صاح كيف تشاء

فالحب يمنع أن تزيغ عن الهدى

الحب ستر للفتى وغطاء

ما الحب إلا قوة روحية

يرقى بها الساري وفيه دواء

الحب إن ملك النفوس أعزها

والعاشقون بربهم علماء

فإذا اتقينا الله جل جلاله

قُضيت حوائجنا وسال الماء

يا من تعرّف بالمهيمن قلبه

أبشر فإن الذكر فيه ضياء

ليس العطاء المال عند أولي النهي

العلم عند الموقنين عطاء

وعن آفاق المحبين ومكانتهم العالية الذري التي لا تبلغها أنظار عوام المؤمنين عن هؤلاء الخاصة يقول واحد منهم هو صاحب المقام المشهود القطب « إبراهيم الدسوقي »:

يقولون لي: ما العلم، ما السر، ما الذي

هو الجوهر الغالي، عن البحر خبّرنا

فقلت لهم هذي مطالع نورنا

ومغربها فينا، ومشرقها منّا

تركنا البحار الزاخرات وراءنا

فمن أين يدري الناس أنّى توجهنا؟!

وليست هذه المكانة لكل الناس إنما هي لخاصة يختارهم الله على علم ويصطفيهم لمحبته كما يصطفى الرسل الرسالة. يقول الإمام الغزالي في كتاب الأحياء:

« إن لله تعالى شراباً يسقيه في الليل قلوب أحبائه، فإذا شربوا طارت قلوبهم في الملكوت الأعلى حباً لله تعالى وشوقاً إليه ».

شعراء الحب

الحب عاطفة تسكن الأفئدة وتعمر القلوب . .

ومن يحكم بأن القلب ـ أي قلب ـ لم يخفق بالحب ولم يعمر بهذه العاطفة فقد افترى . .

والحب يتسامى ويتصاعد . . حتى يصل إلى الذروة . . إلى حب الله .

وللشعراء قلوب حساسة مرهفة . . أناشيدهم تترجم عما يعتمل في قلوبهم .

والشعراء الإلهيون؛ شعراء المحبة الإلهية والعفو الإلهي والعقيدة الإلهية والشريعة وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام . . هؤلاء الذين فزعوا الى الله وإلى رحاب الله . . وفروا من دنياهم بمواجيدهم ومذاقاتهم إلى الملأ الأعلى . . إلى ساحة مولاهم وحضرة إلههم

تلمح في قصيدهم وميض النور وتحس همس الروح وخفق الوجدان. . وتسعد معهم. . وتكاد ترى بسمات الرضا ونسمات الوصل وآيات المحبة وأنّات الشوق ودلائل الثِقَة والود. .

أناشيدهم الشجية مترعة بفيض الرجاء وذوب النفس وخلجات الأفئدة. . صاعدة إلى العوالم العلوية تحمل إلى الساحة الإلهية رجوات ودعوات وابتهالات. . تلمح في قصيدهم كل هذا. . وتحسه. . فينقلك قصيدهم إلى عوالمهم العلوية فتعيش معهم تحس. . وتحب. . تصفو. . وتسمو. .

وفي ساحة الحب الإلهي أنشد كثيرون قديماً وحديثاً. . فالإمام البوصيري وعمر بن الفارض والإمام البرعى وغيرهم. . قد تسنموا الذروة في هذا المجال. . لهم فيه قصائد وفرائد وخرائد. . طويلة النفس، عامرة غامرة. . حية نابضة عاشها ويعيشها وسيعيشها أحباب الله منشدين مرددين بألسنتهم وقلوبهم ما أفاء الله وأفاض على أولئك الهائمين الملهمين الواصلين المتصلين. .

وفي أيامنا هذه شعراء روحيون ملهمون بعضهم

لم يسر شعرهم النور، إذ لم يدون قصيدهم إلى الآن في ديوان ولم يسطر في كتاب، وإن كان قد سار على الألسنة ورُدد في المحافل والمناسبات الدينية. . وتغنى به المنشدون والمداحون في الإذاعة والتليفزيون.

وإني بهذه المناسبة ـ ولهذه المناسبة ـ أهيب بالنقاد ورجال الأدب الديني والإعلامي أن يسجلوا نتاج هؤلاء الملهمين الذي ما زال يتردد في الصدور وأن يعملوا على نشره مطبوعاً ويقدموه في إطار رائع من بارع الإخراج وجميل التنسيق والتوضيب والضبط بالشكل والشرح والتحقيق والتعليق إنهم إن فعلوا ذلك ـ ولا أخالهم إلا فعالين ـ يكونوا قد حفظوا للحقيقة وللتاريخ ولأدب العقيدة الدينية ما يحمل قصيد هؤلاء من الروائع والبدائع التي تشده النفس وتشد الحس.

* * *

وقد آثرت أن تكون مختاراتي هنا من هذا الشعر الروحي العقدي لبعض الشعراء المعاصرين فحسب إلى هذا قصدت لأنني أرى ـ ولكل وجهة ـ أن تراثنا الروحي القديم في هذا المجال أشهر من أن يعرّف. .

أو يقدّم . .

تعالوا بنا نعيش لحظات روحية مع مختارات من ذوب نفس المحب الإلهي مداح البيت عباس الديب من قصيدة له عنوانها « رجاء » يقول فيها :

أتيتك راجياً في حسن ظني
مقراً بالذي كان مني
فإني مذنب في غير شرك
وأنت عليّ ذوي فضل ومنّ
وما الأوزار لو بلغت جبالاً
لتقطع مطمعي في العفو عنّي
وما لي في الحياة تليد خير
ليمحو زلّتي ويرّد عني
فما قدمت من خير، ولكن
أتيتك راجياً في حسن ظني

* * *

ونفسي ما استقام لها طريق
ولا رعت المشيب وحق سني
أذكرها فتظهر لي خضوعاً
وأغفل لحظةً فتفرّ مني

ومـا قلت يـا نفسي أستقيمي
علـى التقـوى، تـرد إليـك عني
وكم أحـرقت دنيـاهـا بـزهـد
فـعـادتـني وعـادت لـلتـشـني
فـلا تـفضـح رُعُـونـاتي وإثـمي
فـمنـك البـر والـتـقـصـير مـني

* * *

وجـهـلي والهـوى قـد أورداني
وراء الـنـفس في تـيـه الـتـمـني
فـروحي إذ تـرى المحـراب تشـدو
فـتـأتي الـنـفس في لهـو تُـغـني
فـإن حـاسبت مـالي غـير حـبي
وإن عـاقبـت من سيـرد عـني
وإن تـرحـم فـجـوّاد كـريـم
وإن تـغـفـر فـذو فـضـل ومـنّ
فـإن شئت الحسـاب هـلكت عـدلاً
وإن شئت الحنـان عـفـوت عـني

* * *

ولـطـه رحمـة، وأنـا مـسـيء
وفي رحمـاتـه أحـسـنـت ظـنيّ

فمهما كنت عمري عبد سوء
فخمر هواه في كأسي ودنّي
وشوقي للحبيب لهيب قلبي
وفي الأشواق ما يحلو التأني
فلست أقول في الأشواق زدني
ولا في الصدق في العشق امتحني
فعجزي في الهوى عين افتقاري
أليك لكي تردّ النفس عني

* * *

إلهي مهجتي كلفت بطَهَ
أقدّمها صداق الحب مني
وفي القربات ما عندي سواها
فخذها قربة لرضاك عني
فإني إذ أرى أنوار طَه
كأني قد رأيتك وىْ كأني
فقل للنفس إذ بلغت مناها
قتيل الحب نلت القرب مني
فكيف تحب محبوبي وتشقي
مُحال بل لك الإحسان مني

* * *

إلهي بالمذلة بانكساري
بسترك حرمة الشيخ المسن
إلهي شِقوتي غلبت حيائي
فلا تفضحن في سوءات سني
إلهي، سيدي ثقتي رجائي
وسعتَ المذنبين فلا تهني
فإني قد أتيت بغير زاد
ويا غوثاه إن لم تعف عني
وقد أحسنت بالرحمن ظني
فحقق لي الرجاء بحسن ظني

* * *

ومن أغرورة له بعنوان «تولى المصطفى أمري» يقول فيها:

تولى المصطفى أمري فكانت لحظة العمر
وأسلمني إلى ربي فكانت ليلة القدر
وأشرق نوره سحراً فتم الوصل بالفجر
وأصبح سرّه[1] يسري ليمحق شُبهة الغير

(١) السرّ الذي يكون بين العبد وربه سرّ خفيّ لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده. وهو من عطاء الله لخاصته من المحبين.

وصــرت أراه إذ ألــقــاه في نــجــواه في ســري
فــألّــفــني وعــرّفــني وشــرّفــني بــذا الــســر
وأســرى بي الى الــبــاب وألــقــى بي الى الــبــحــر
فــقــومــني وكــرمــني ونــعــمــني عــلى فــقــري

* * *

وأدبــني وقــربــني فــغــيــبــني بــلا ســكــر
وطــهــرني وســاررني فــأســكــرني بــلا خمــر
وأنــطــقــني ومــا أدري بمــا أدري ولا أدري
فــأذكــار وأســرار وأنــوار بــنــا تــســري

* * *

وأرضي قــد غــدت خضــراء لمــا عشت في الخضــر
وبحــري يعــكس الأســماء نــوراً ســاحــه صــدري
وروحي تصحب الشهــداء فُــلكــاً في الســماء تجــري
فــصــرت أرى بني الــزهــراء جُــنــد الــبــر والــبــحــر

* * *

عــبــاد الله مــا أحــلاه يــوم رضــاه عــن أمــري
ويــا غــوثــاك كــم أخشــاك إن لــوحــت بــالهــجــر
فــما في الــدرب غــير الحــب في صــدق وفي طــهــر
فــطهــر القلب عــين القــرب في ســر وفي جــهــر

ألـيس رضـاك سـرّ هـداك يـوم نـداك في الـذرّ
وأنت قسمت إذ أقسمت في التنـزيـل بـالفـجـر
وقـد شـرّعت إذ شفّعت بـالمختـار بـالـبـدر
فـكـم أهـواه يـا الله فـاجـعـل قُـربـه أجـري

* * *

ويـا عـجـبـاً فـكـل الخـلق مـن وحش إلى طـير
تـقـول لكـل من تلقى تـولّي المصطفى أمـري
فـذاك حجـاب عـزتـه ليـرحم ضعفنـا الفـطري
وتـلك نهايـة الإسـراء تـلك حـقـيـقـة الأمـر[1]

* * *

وهـذه صلوات روح للمـرحـوم الشـاعـر إبـراهيم محمد نجا:

سـمـوت بـالـروح إلى خـالـقـي
في لـيلة نـشـوى بـجـمـر الـضـيـاء

---

(٢) للشاعر الملهم عباس الديب ديوان شعر أسماه (ما بين زمزم والصفا) وقد عرضه الأستاذ محمود كمال وقدم له بجريدة الأهرام قفي ٦/٩/٧٨.

ذابت بها الظلمة حتى غدت
أسطورة طال عليها الفناء
ورقّ فيها النور مسترسلاً
كهمس ناي ٍ هائم في الفضاء
ما زلت أسمو والمنى في يديّ
رفّافة مثل النجوم الوضاء
حتى إنتهت روحي بأشواقها
لمنهل الغيب الذي في السماء
كما إنتهى للنبع بعد السرى
في البيد ركب الحائرين الظماء
فانتفضت فيها ضراعاتها
وأطلقت في الصمت هذا النداء:
يا منهل الغيب أسقني قطرة
من ذلك النور وهذا الصفاء
تجعل حياتي نغماً شادياً
في عالم يهفو إليه الرجاء
أحسه صوتاً عميق الصدى
يهز أعماقي بسحر الدعاء
وصورة طال عليها المدى
وما خبا فيها رفيف الرواء

يا منهل الغيب... وبي غربة
تنبت في عمري هموم البقاء
غريبة بالحب في عالم
الحب فيه خدعة أو رياء
غريبة بالصمت.. من نايه
يثير إلهامي أرق الحداء
أراه ظلاً سابحاً في السنا
كطيف عطر سابح في الهواء
وأحتسيه خمرة عتقت
في الغيب يدري سرّها الأنبياء
والصمت سر هائم في الدجى
يهفو إلى الغيب ويبغي الخفاء
صاغت حياتي منه أسرارها
فاستغرقت في عزلة وانطواء
والصمت سحر همستُ في جوه
على جناحي: لهفة واشتهاء
والصمت بحر موجه نائم
يحلم بالعودة من حيث جاء
عبرته وحدي على زورق
يود لو يسري لغير إنتهاء

وعــدت مــنــه يــشــهّــي الــرؤى
وفي الــرؤى ريّ، وفــيــهــا غــذاء
فــالصمت عندي بــالـرؤى حــافـل
وعــنــد غــيـري حــافــل بــالهـبـاء

* * *

وبقية هذه الصلوات في ديوان الشاعر (أيام من عمري) في الصفحات من ١٠٧ ـ ١١٠.

وللشاعر ـ عليه رحمة الله ـ ديوان أسماه « حياتي ظلال » نال به جائزة مجمع اللغة العربية سنة **١٩٥٢**.

وهذه صبوة قدسية للشاعر المرحوم محمد هارون الحلو يقول فيها:

يــا رب يــا مــولاي نــورك في الــورى
مــلء الــوجــود يضيء كــل حقيقــة
أفــرغ عــلينــا مـنــه ظــل هــدايــة
ورعــايــة حــتى تــفــوز بــجــنــة
يــا رب وارحم عبد طــاعتك الــذي
مــا قــرّ إلا في ضــيــاء محــبــة
يــا رب صــل عــلى الشفيــع محــمــد
بــدر الهــدى وضــيــاء كــل دُجُنّــة

من جـاء بـالـقـرآن فـيـنـا رحمـة
وأتـمّ نـعـمـة ربـه بـالـسـنـة

ويقول في ديوانه « مزامير » تحت عنوان « تباركت يا ذا الجلال ».

إلهي: تـبـاركـت، هـذا الـوجـود
نشيـد الخـلائـق منـذ الـقـدم
يـرتـل بـاسـمـك لحن الخلود
عـلى وتـرٍ عـبـقـريّ الـنـغـم

* * *

تـبـاركـت يـا رب أنـت الإلـه
تسـوق لنـا الخـير مـلء اليـدين
مـواكـب فـيـهـا جمـال الحـيـاة
وأسـرارهـا بهـرت كـل عـين

* * *

إلهـي تـبـاركـت يـا ذا الجـلال
ويـا مـانـح الكـون سـرّ الحـيـاة
نسبّـح باسمـك في كـل حـال
وتـعـفـو لـذكـرك كـل الجـبـاه

* * *

والشاعرة ملك عبد العزيز تقول في ديوانها « أغاني الصبا » في قصيدة تناجي بها ربها:

لكنني لما رفعتُ ناظري
إلى السماء أجتلي ضياك
فقلت يا رب إليك ألتجي
إليك أحمالي وضعفي الحزين
من ذا يفك الأسر عن مدامعي
سواك يا رحمن أنت يا رحيم
ومن سواك كفه الحنون رحمة
ونوره الرفيق بلسم الجروح
ومن سواك يسمع النداء إذ أبوح
لا سِتر بينا، لا باب، لا صروح
فجاء من خلفي وقال لي إهدئي
إني قريب إذ دعوتني قريب
في كفي السلام والأمان والرضا
سكينة الأرواح، هدأة القلوب
سمعته سمعته
أحسست كفه الحنون
مواجعي تذوب في حنانه الرحيب
أنفاسه حولي غمائم الطيوب

تهدهد الأشجان تمسح الندوب
وظله الرطيب جنة النعيم
وبره الودود موئل المضيم
وفتح القلب وذابت أدمعي
دفاقة دفاقة علوية العبير
تجتاح أحزاني وتبذر الرضا
وعندما تلفتت عيني لأفقك البعيد
وجدت نورك الرطيب كالندي
إلى جواري خلف عطفي هامسٌ
بلحنه الودود ناعم السنا
فقلت: ما أحلى الحنان
ما أجمل السلام باعث الرضا

* * *

وهذه النجوى لشاعر الأولياء الشيخ علي عقل:

وقفتُ عـلى نجـوى الإلــه جـوانحي
لــذلــك قـلبي مــنــزل كـله ذكـــر
وأخليت قـلبي مـن منــاجــاة غـيــره
فــأصبـح طــوداً لا يـزلـزلـه الغـــير

أسـارع مشتـاقـاً وأسـكت هـائـماً
وأنـطق إجـلالاً ومـا عـاقني سـير
ففي صحـوتي شوق وفي غفـوتي هـوى
وفي مشـيـتي عـلم وفي وقـفـتي سـر

ويقول:

تـركـت جـمـيـع خـلق الله دوني
شغلت عـن الخـلائق بـاشتيـاقي
إذا مـا عـشـت لا أنـسـى إلهـي
بـه أسمـو مـن الأخـرى المـراقي
أحـب الله عـن أدب وصـدق
ولا أرضى سـوى التقـوى خـلاقي
يـعـز عـليّ تـرك الحـب عـندي
ولـو بـلغـت بي الـروح الـتـراقي

ثم هـو يدعـو سقـاة الحب أن ينقلوا عنـه للنـاس المحبة الممزوجة بالخوف والرجاء فيقول:

ألا يـا سـاقي العشـاق مهـلاً
تعـالى امـلأ كؤوسـك من حِقـاقي
غـرامي قـد مـزجت بـه رجـائي
عـلى خـوف فمن خـوفي مـذاقي

وروحي أدركت معنى التجلي
فمنه أرى اصطباحي واغتباقي

ويتمسك شاعر الأولياء بالمحبة، ويعلل تمسكه بها بأن الله هو الباقي بعد فناء خلقه، فهو الذي يستحق وحده أن يكون محبوباً فيقول:

ومن عرف المحبة عن يقين
محال أن يميل إلى فراق
وكيف أحب غير الله يوماً
وليس سواه في الأكوان باق

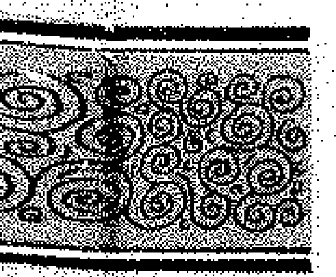
ويقول:

وكيف أرضى بغير الله متجهاً
والكل والجزء والأحشاء تعبده
إذا سهرت فما أسهرت عن ملل
لكنه الحب يدعوني وأشهده

ونختم هذه الجولة مع شعراء الحب والمحبة بهذه الأبيات لشاعر الأحباب عباس الديب: من ديوان شعره: «ما بين زمزم والصفا»:

أحبـــاب طـه وآل البيت وأطـــربـــا
فـالنور من طلعـة المختار مـا غربـا
عشنا على الشـوق عشاقـاً مدامعنـا
تهمي حنينـاً إلى من شـرّف الأربـــا
حتى إذا دارت الكـاسات في سحـر
تسقي عبيـد الرضـا حيّاً بمـا شربـا
فـــالحمـد لله فضـــل الله ســـاحتنـــا
والقلب في حيـه ثبت وما اضـطربـا
والحـب أغنيـــة صلّت بمـــدمـعنـــا
حتى شهـدنا فقـال القلب واطـربـا

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين



قد يقطّب إنسان ما بين عينيه حينما يسمع عن الحبّ في القرآن....
وقد يشيح بوجهه، وينأى بجانبه، ويحوقل ويستعيذ من الموضوع وصاحبه!.

وهؤلاء قليل ما هم، بل هم من الندرة بمكان.

لأن الذي وآتاه الله حظاً من المعرفة والعلم، ونصيباً من الفهم والتذوّق لنصوص الإسلام من آيات قرآنية وأحاديث محمّدية تتضح أمامه الرؤية، ويعلم - في يقين - أن الإسلام دين الحبّ وأن المؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلاّ إذا أحسّ حرارة الحبّ.

وعن ذلك يقول رسول المحبة والسلام رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام "ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء حبّا لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" رواه الشيخان البخاري ومسلم.